٨

ميشال تورنييه

جمعة

أو الحياة البرية



ترجمة هنري زغيب



اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في ٣٠/ صفر/ ١٤٤٤هـ
٢٦/ ٩/ ٢٠٢٢م

م. سرمد حاتم شكر

جُمعة أو الحياة البرية
ترجمة : هنري زغيب
الطبعة العربية الاولى ١٩٨٩

الناشر : وزارة الثقافة والاعلام
دار ثقافة الاطفال
العراق : بغداد ص ـ بـ ٨٠٤١

سلسلة الخيال

تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام : فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة : فاروق يوسف

جمعة
أو
الحياة البرّية

ميشال تورنييه

ترجمة هنري زغيب

ميشال تورنييه

ولد عام ١٩٢٤ في باريس، وأنهى فيها دروسه العليا وفي جامعـة توبينغن، وتخرج خبيراً في بالأدب الالماني، اذ والداه جامعيان وخبيران في اللغة الالمانية.

من هو اياته: التصوير الفوتوغرافي، وله فيه برنامج تلفزيوني من إعداده. عام ١٩٧٠، نال جائزة غونكور على روايته «ملك شجر الماء»، وانتخب عام ١٩٧٢ عضواً في هذه الأكاديمية.

في روايته الأولى «جمعة أو أطراف المحيط الهادي»، (كـرسته الأكـاديمية الفرنسية عام ١٩٦٧) استعاد أسـطورة روبنسن كروزو . وانطلاقاً من موضوع هذه الرواية وأشخاصها، وضع ـ بعد سنوات ـ كتابة أخرى لها مخصصة للفتيان، بعنوان: «جمعة أو الحياة

البرية».

حول هذه الرواية واعادة كتابتها، صرح يوماً:

«اكتب لسببين: لأن الكتابة مهنتي التي اخترتها، وبها أكسب عيشي، ولأنني أحب الكتابة. ومن آلذ ما في حرفة الكاتب: إلتزامه الاتيان بالجديد دائماً. الخلق مفروض، والتكرار مرفوض . ومن أقسى ما فيها: الوحدة التي تحاصر الكاتب. فخلال فعل الكتابة، لا أحد معه.

وانني أكتب لجميع القراء. لكنني لاأنجح في ذلك دائماً. مرات أوفق جداً، فيجيء ما اكتبه سلساً منساباً مقتضباً ويقرأني الجميع، حتى الصغار. حينئذ أقارب نماذجي المدعوين: لافونتين، بيرو، أندرسن، كيبلنغ، سانت إكزوبري،... ومرات أوفق أقل، فلا يقرأني سوى الكبار، أو بعضهم من «المثقفين».

لاأذكر انني صرفت من عمري وقتاً في غير الكتابة. حتى صغيراً، كنت انال أرفع علاماتي على مادة الانشاء.

ولكي أكتب، أبحث عن مواضيع مشوقة وكبيرة. لذا، كتبت «جمعة...» عن أسطورة روبنسن كروزو ، و«ملك شجر الماء» عن حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ كما رآها أسير

فرنسي، و«النيازك» عن شقيقين توأمين ومالقياه من مآسٍ وسعادة، الخ... وهي مواضيع تستهويني منذ زمن بعيد. ولايزال في بالي منها وفي قلبي ثلاثة أو أربعة أكتبها وأتوقف بعدها عن الكتابة فيها.

ذات يوم،قرأت رواية دانيل دوفو «روبنسن كروزو» (الصادرة عام ١٧١٩)، وأعجبتني كثيراً. سوى أنني حزنت لكون جمعة المسكين مهمشاً فيها، والضوء كله مسلط على روبنسن، لأنه إنكليزي وأبيض. فقررت أن أعيد كتابة القصة وأعطي الحصة الكبرى لجمعة. هكذا، لايعود روبنسن من يعلم جمعة الحياة المدنية، بل جمعة يعلم روبنسن الحياة البرية.

أعيش في الريف وحدي، وأسكن بيتاً قديماً في قرية فرنسية صغيرة. عندي حديقة وهر وأشجار ودراجة. ربيت ولداً يدعى لوران، صدف أن كنت شاهدا على معموديته. من أجله كتبت «جمعة...» أمضى معي خمسة عشر عاما، ثم تزوج وباتت ابنته كأنها حفيدتي. جميع أولاد القرية أصدقائي، ويعرفون أن بامكانهم زيارتي ساعة يشأوون، وأنهم لايزعجوني .

عمـري ؟ ليس للكـاتب عمـر. فهـو لايموت. ماعمر فيكتور هيجو أو جول ڤيرن ؟ أكبر فرحة في حياتي، ذقتها منذ فترة، عشية الميلاد، في «المؤسسة الوطنية للعميان» في باريس. كانت هذه الرواية، التي بين يديك، صادرة حديثاً على طريقـة «بـراي» (كتـابـة خاصة للعميان بالأحـرف النافرة)، وكان علي توزيع نسخها على ١٣٠ تلميـذا تجمعوا في القاعة من حسن حظي أنْ لم يكن بامكـانهم رؤية دموعي، لأن العميان تجرحهم نظرات الشفقـة عليهم. سوى أن دمـوعي، لَبلتئذٍ لم تكن من عينين مشفقتين، بل مشرقتين وسع الفرح.

ميشال تورنييه

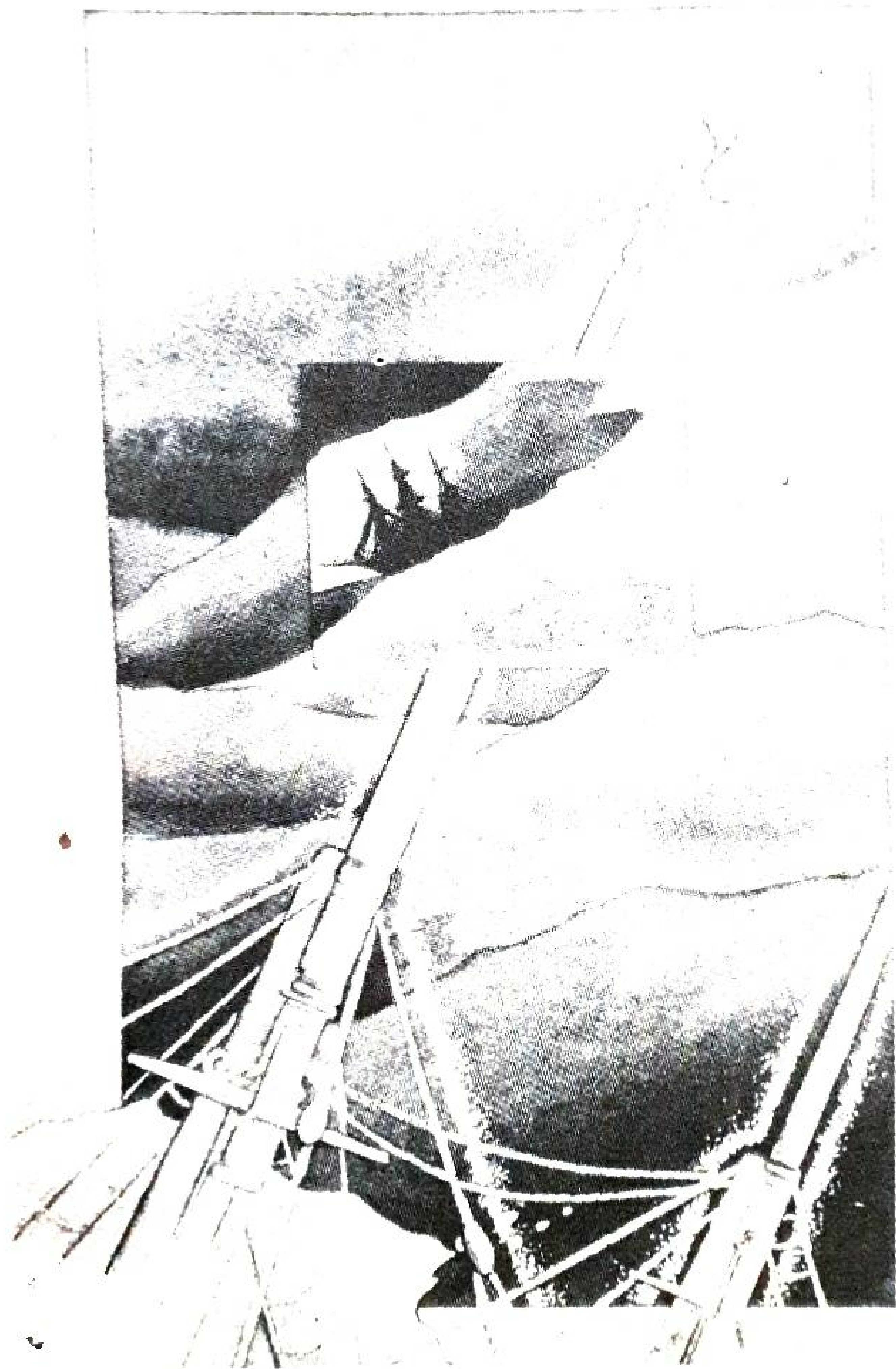




مع نهاية بعد ظهر التاسع والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام ١٧٥٩، تلبدت الغيوم فجأة فوق أرخبيل خوان فرناندز، على بعد ستمئة كيلو متر تقريباً من ساحل التشيلي.

تجمع افراد طاقم السفينة «فرجينيا» على سطحها يشاهدون ألسنة من لهب في قمة سفينتهم على رؤوس الصواري وعوارضها. وكانت تلك. ظاهرة كهربةٍ في الجو، تنذر بهبوب عاصفة رهيبة.

من حسن الحظ أن السفينة «فرجينيا» ـ وعلى متنها روبنسن ـ لم تكن لتخشى العواصف، مهما اشتدت، فهي شراعية هولندية، مستديرة الأطراف، واطئة الصواري، إذاً ثقيلة الوزن ورشيقة السرعة، على



استقرار متين في البحر الهائج.

مع المساء، حين رأى القبطان ڤان ديسل أن هبة ريح فجرت أحد الاشرعة، أمر رجاله بطي باقي الأشرعة، والاحتماء معه في الداخل حتى تنقضي العاصفة. ولم يكن من خطرٍ يخشونه، إلا واحداً: أن تصطدم السفينة بصخرة كبيرة، أو أن تغرز في جرف رملي. سوى أن الخريطة لم تكن تشير الى اي من ذلك في تلك المنطقة البحرية. هكذا، يمكن «فرجينيا» أن تعبر العاصفة مئات الكيلومترات بدون خطر.

كان القبطان وروبنسن يلعبان بالورق هادئين، فيما يشتد خارجاً جنون الاعصار. نحن في منتصف القرن الثامن عشر. وكثيرون من الأوربيين ـ على الأخص: الانكليز ـ يهاجرون الى أمريكا طمعاً بالثروة. وهكذا روبنسن: ترك في يورك زوجته ولديه، وهاجر الى أمريكا الجنوبية، على أمل تنظيم تبادلات تجارية رابحة بين بلاده والتشيلي. وكانت السفينة «فرجينيا» قبلذاك بأسابيع، دارت حول القارة الأمريكية، عابرة، بنجاح، راس «هورن» المخيف.

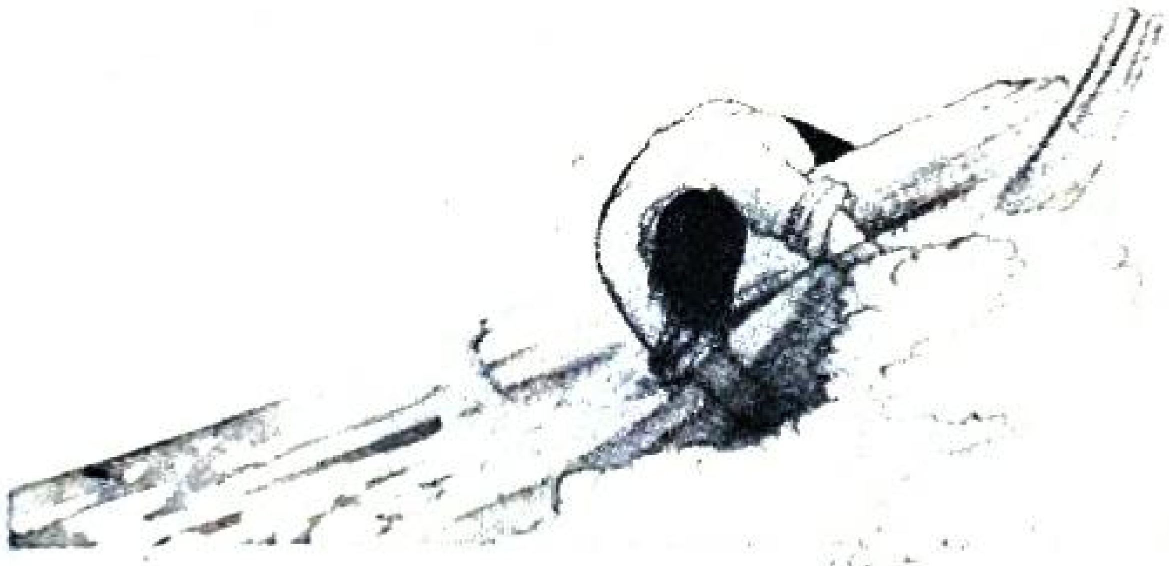
وهــا هي في رحلتهــا الحـالية تقصد ڤالباريزو حيث ينوي روبنسن النزول.

وفيما كان يرمي إحدى أوراقه على طاولة اللعب، قال للقبطان:

ـ الا تعتقد أن هذه العاصفة ستؤخر وصولنا الى التشيلي؟

رمقه القبطان ببسمة ساخرة وهو يداعب، أمامه، كأس العرعار ـ شرابه المفضل. كان أكثر خبرة من روبنسن، ويهزأ غالباً من نفاد صبره. أخذ مجة من غليونه، وأجاب:

ـ حين تقوم برحلة طويلة كهذه، تبحر ساعة تشاء ولكنك تصــل ساعــة الله يشاء. ثم فتح علبة خشبية حشاها





تيغه، وغرز فيها غليونه الخزفي الطويل، وعلق شارحاً:
- هكذا يبقى الغليون بمأمن من الصدمات، ويتشبع من رائحة التبغ العسلية. وأقفل العلبة الخشبية واستلقى باسترخاء على ظهره قائلا:
- أرايت ؟ حسنة العواصف أنها تجعلك تسترخي، وتريحك من كل هم. أمام جنون العاصفة، لاتستطيع تحركاً. تستسلم للقدر.
في هذه اللحظة بالذات، اهتز الفانوس المعلق بسلسلة ويضيء الغرفة، فدار دورة كاملة عنيفة، وانفجر مرتطماً بالسقف. وقبل أن تعم العتمة تماما، لمح روبنسن كيف هب القبطان، رأسه الى الأمام، وطار تحت تأثير الصدمة، من فوق الطاولة.
نهض روبنسن متوجهاً نحو الباب، فصادف مجرى هواء عنيفاً، نبهه الى ان الباب لم يعد موجوداً.
والذي بات أخطر من ترجح السفينة وارتجاجها وترنحها أياماً متتالية، أنها تسمرت ولم تعد تتحرك.
بلى: لقد ارتطمت بصخرة كبيرة، أو أنها غرزت في جرف رملي.

ومـع انـزيـاح الغيـوم، لحظات متقطعة، عن البدر المكتمل، تمكن روبنسن ـ برغم النور الشحيح ـ من أن يلمـح على سطح السفينـة عدداً من البحارة يحاولون إنزال قارب النجاة. تقدم منهم ليساعدهم، فإذا بصدمة عنيفـة تزلزل السفينة. وماهي، حتى اجتاحت السطح موجة هائلة جرفت عنه كل ما ومن كان عليه.





٢

حين استعاد روبنسن وعيه، وجد أنه منبطح أرضاً، ووجهه في الرمل. تسللت موجة الى الرمل المبلل، وأخذت تلحس قدميه. انقلب على ظهره، فرأى نوراس سوداء وبيضاء تحوم فوقه في الفضاء، وقد استعادت السماء زرقتها بعد العاصفة.

استوى روبنسن جالساً بعناء، فشعر بألم قوي في كتفه اليسرى. التفت الى الشاطئ فوجد عليه كميات من السمك الميت والصدف المكسور والطحالب السوداء، مما تقذفه الأمواج المتتالية. والى الغرب، رأى جرفاً صخرياً كبيراً متقدماً في البحر، وقد التحقت به مجموعة من الصخور المتفاوتة. هناك، استقرت عيناه على هيكل السفينة «فرجينيا» بصواريها المشلعة وحبالها المتشظية

في الهواء.

نهض روبنسن، ومشى بضع خطوات. لم يكن جريحاً، لكن كتفه المرضوضة كانت تؤلمه كثيراً. وإذ تنبه الى أن حرارة الشمس تشتد، امتشق بضع اوراق خضراء عن طرف الشاطئ وجعل منها قدة عصبها على رأسه. ثم لم عن الارض غصناً جعله عصا، وأخذ يتوغل في الغابة.

كانت جذوع الأشجار المقطوعة ـ بما يتدلى فوقها من فراخ أشجار نمت على الأرومات القديمة، والنباتات الطويلة المعرشة عليها أو المدلاة من الأغصان العالية ـ تشكل تشابكاً كثيفاً يصعب اختراقه. حتى أن روبنسن كان غالباً يلجأ الى الانبطاح والدب على يديه ورجليه ليمكنه التقدم. لم يكن يسمع أي صوت، ولايرى اي حيوان. لذلك استغرب، حين فوجئ ـ على نحو مئة خطوة منه ـ بكبش متوحش، أشعث الفرو طويله، منتصبٍ أمامه جامداً يتأمله. تخلى عن عصاه، لخفتها، وانحنى فلمَّ أرومة كبيرة يستعملها هراوة. وحين بلغ الكبش، أحنى هذا رأسه ودمدم خفيضاً، فظن روبنسن آن الحيوان يستعد للوثوب عليه. رفع الهراوة وانهال بها

عنيفاً بين قرني الكبش، فخر هذا على ركبتيه، ثم انقلب على خاصرته جثة هامدة.

بعد ساعات طويلة من السير الشاق، بلغ روبنسن كتلة صخرية متشابكة، اكتشف في مقدمها مدخل مغارة، تظلله أرزة دهرية هائلة. لكنه لم يتوغل في هذا المدخل، سوى بضع خطوات، لأنه كان مظلماً وموحشاً، ولايمكن سبـره يومئذ. ففضل تسلق الصخور، لعله يشرف، من علٍ، على مدى واسع. وهكذا وقف على اعلى قمة من أعلى صخـرة،فاكتشف أن البحـر يزنر، من جميع الجهات، البقعة التي هو عليها، ولم يجد أثرا لمعالم سكن. عندئذ، فهم أنه على جزيرة قاحلة، وفهم جمود الكبش أمامه، إذ إن الحيوانات المتوحشة التي لم تعهد الانسان، لاتهرب منه اذا اقترب منها، بل تتأمله بفضول واندهاش.

شعر روبنسن أنه مسكون بالحزن والتعب. توجه الى اسفل الصخر الكبير، فوجد شجرة أناناس برية. استل سكينـة من جيبه، واقتطع ثماراً، أكلها ثم انزلق تحت حجر كبير، ونام.





٣

استفاق روبنسن على أوائل خيوط الشمس الطالعة، فنـهض وانحـدر صوب الشـاطئ الذي غادره الليلة الفـائتـة. كان يقفـز من صخـر الى جذع الى تلعة الى أرومة... وأحس أنه رشيق، وبكامل حيويته، بعد ليلة نوم عميق. لم يعد يشعر باليأس. صحيح أن هذه الجزيرة تبدو قاحلة ولكن أليس هذا أفضل من أن تكون مسكونة بأكلة لحـوم البشر؟ ثم هي تبـدو مضيـافـة، بشاطئها الجميل في الشمال، وحقولها المبللة ذات المستنقعات في الشرق، وغـابتهـا الكبـرى في الغـرب، وهـذه الأجمـة الصخرية، في الوسط، تنفتح فوهتها على مغارة سحرية، وتطل وسع الأفق على مشهد رائع.

بكل هذا كان يفكر، لحظة لمح وسط المكان جثة الكبش

الذي قتله، يتناهشها ستة نسور كواسر، منتوفة ريش الرقبة ومعقوفة المناقير. هول روبنسن بعصاه فوق رأسه، فتفرقت النسور، وطار بطيئة، بعدما دبت خطوات ثقيلة على قوائمها. ثم حمل على منكبيه ما بقي من جثة الكبش، وأكمل مشيته، متباطئاً، صوب الشاطئ. وهناك، جلس واجتز بسكينة قطعة من اللحم راح يشويها بعدما علقها بثلاثة قضبان عقدها أثفيةً وأشعل تحتها النار.

شعر بأن السنة اللهب المتطايرة تقوية أكثر من أكله قطعة اللحم المقددة العابقة برائحة الكبش المقتول. وقرر اللجوء دائماً الى هذه النار، توفيراً لحجر الصوان في قداحته من جهة، ومن جهة أخرى للفت انتباه طاقم أي سفينة تتقدم من الجزيرة. علماً بأن ليس أفضل، لتنبيه البحارة، من هيكل «فرجينيا» المحشور بين الصخور، ولتمنينهم بأمل العثور فيها على كنوز وبقايا مغانم.

هنا فكر روبنسن: عليه ـ قبل هبوب عاصفة جديدة ـ أن يبلغ «فرجينيا» وينقذ له منها مابقي فيها من أسلحة وأدوات ومعدات وذخائر ومؤن. مع أنه كان ميالاً للاقتناع بعدم حاجته إليها، لأمله بقرب وصول سفينة

الى المكان، تقله من الجزيرة. لذلك، تحسباً وترقباً، بذل كل جهده في إنشاء علامات لافتة على الشاطئ ورؤوس الصخور.

وقرب النار المشتعلة على الرمل، كدس حزماً من الأغصان، وكمية من الضريع (نبات أخضر خفيف يقذفه البحر) اذا أضرم فيها النار، تثير ألسنة عالية من الدخان وغيوما كثيفة لايمكن الا ان تلفت سفينة ولو بعيدة في الأفق.

ثم خطر له أن ينصب صارياً على الرمل، يضع في رأسه عصا، أحد طرفيها يلامس الأرض، حتى اذا احتاج للانذار، وضع على هذا الطرف حزمة مشتعلة، ورفعه عالياً بواسطة عارشة ربطها بالطرف الآخر للعصا.

بعد ذلك، وجد ماهو أفضل: كان على أحد الصخور شجرة يوكاليبتوس كبيرة يابسة، مرمية، جوفاء الجذع. فحشا الجذع عساليج وكسور حطب، مما ـ اذا أضرم فيه النار ـ يحول الشجرة كلها الى كتلة نارية هائلة يمكن مشاهدتها على بعد كيلو مترات.

أما طعامه، فكان مما يصادفه من الأصداف وجذور الخنشار (نبات سرخسي) ومن جوز الهند والعنبيات وبيض العصافير والسلاحف.

في اليوم الثالث، أبعد عنه جثة الكبش التي بدأت تنتن. لكنه سرعان ماندم على ذلك، لأن النسور التي استمتعت بالجثة، لم تعد تنفك تلاحقه وتترقبه بانتظار توفيره لها «غنائم» جديدة. وكان أحيانا، في لحظات حنق شديد، يقصفها بالحجارة والحطب، فتتفرق تلك الطيور المشؤومة كسولة.

لكن ابتعادها عنه لم يكن يطول.





٤

نفذ صبر روبنسن من عقم الانتظار الطويل مراقباً الأفق الخـالي. فقرر البدء ببناء سفينة متينة يبلغ بها شاطئ التشيلي. انما تلزمه معدات كثيرة. لذا استسلم، بعد إشاحة ورفض، الى فكرة أن يبلغ هيكل «فرجينيا» ليعود منه بكل ما قد يلزمه..

عمـد الى أعنـاق نباتات طويلة، حزم بها دزينة من الجذوع بشكل طوفة، غير متينة طبعاً، لكنها توصله على متنها، في بحر لايختضه الموج. واستعان بعصا طويلة دفعها في الأرض ليدفع بها الطوفة فتجري، لأن المياه لم تكن عميقة بسبب الجزر، حتى اذا بلغ الصخور الأولى، راح يستعين بها على دفع الطوفة الى الداخل أكثر. وبهذه الطريقة، دار حول حطام السفينة دورتين. كان الهيكل



يبدو سليما، وليس الا ارتطامه بصخرة تحت المياه.

ولو بقي أفـراد الطاقم محتمين في الداخل ـ عوض أن يتعرضوا للعراء على السطح الذي جرفته الأمواج الهائلة ـ لكانوا نجوا ربما جميعهم.

كان سطح السفينـة مكتـظاً بتشـابـك كثيف من الصواري المحطمة وعوارضها والجبال والأسلاك، حتى ليستحيـل عليـه إيجـاد ممر. وكان التشابك نفسه في المستودعات والعنابر، انما لم تبلغها المياه. لذا، سهل على روبنسن الدخـول، فوجـد في الصنـاديق مؤونـة من البسكـويت واللحم المجفف، أكل منه ماأشبعه، بدون شراب. صحيـح أنـه وجد أيضا زجاجات من الكحول والنبيذ، لكنه لم يمسسها لأنه لم يذق شراباً في حياته، ولم يشأ كسر إرادته.

وكـانت المفاجأة الكبرى له يومذاك، أن اكتشف في الجـزء الخلفي من حوض السفينـة أربعين برميلاً من المسحـوق الأسـود ـ بضاعة كتم القبطان خبرها عنه خوف إقلاقه.

ظل روبنسن أيـاماً ينقل على طوفته تلك الصناديق

الأربعين. لأن المد غالباً ما كان يدهمه فيعيقه عن التجذيف بالعصا. وكان هو يفيد من ذلك، ليضع البراميل في منأى عن حرارة الشمس والمطر، تحت غطاء من السعف المثقلة بالحجارة. ومن حطام السفينة، حمل أيضا صندوقين من البسكويت، ومنظاراً، وبندقيتين قديمتين (تطلقان بفتيل يشعله حجر صوان)، ومسدساً ذا أسطوانتين (أنبوبين)، وفأسين، ومعزقتين (لقلب التراب) ومعولاً ومطرقة وحزمة من الكتان، وقطعة كبيرة من القماش الرقيق الأحمر (الايتامين) يمكن مبادلتها، عادة، مع أهل البلد المقصود.

وفي غرفة القبطان، وجد علبة التبغ الخشبية، محكمة الاغلاق، وفي داخلها الغليون الخزفي سليماً رغم رقته وهشاشته.

وحمل طوفته ايضاً كمية كبيرة من الالواح الخشبية المقتلعة من سطح السفينة وقواطعها.

ومع اليوم التالي، بدأ بناء مركب سماه، استباقاً: «الفرار».

٥

في فرجة من الغابة مسطحة، تمكن روبنسن من أن ينجز - تحت الأعشاب - جذعاً من الرند جافاً وسليماً، جعله العمود الفقري لمركبه المرتقب.

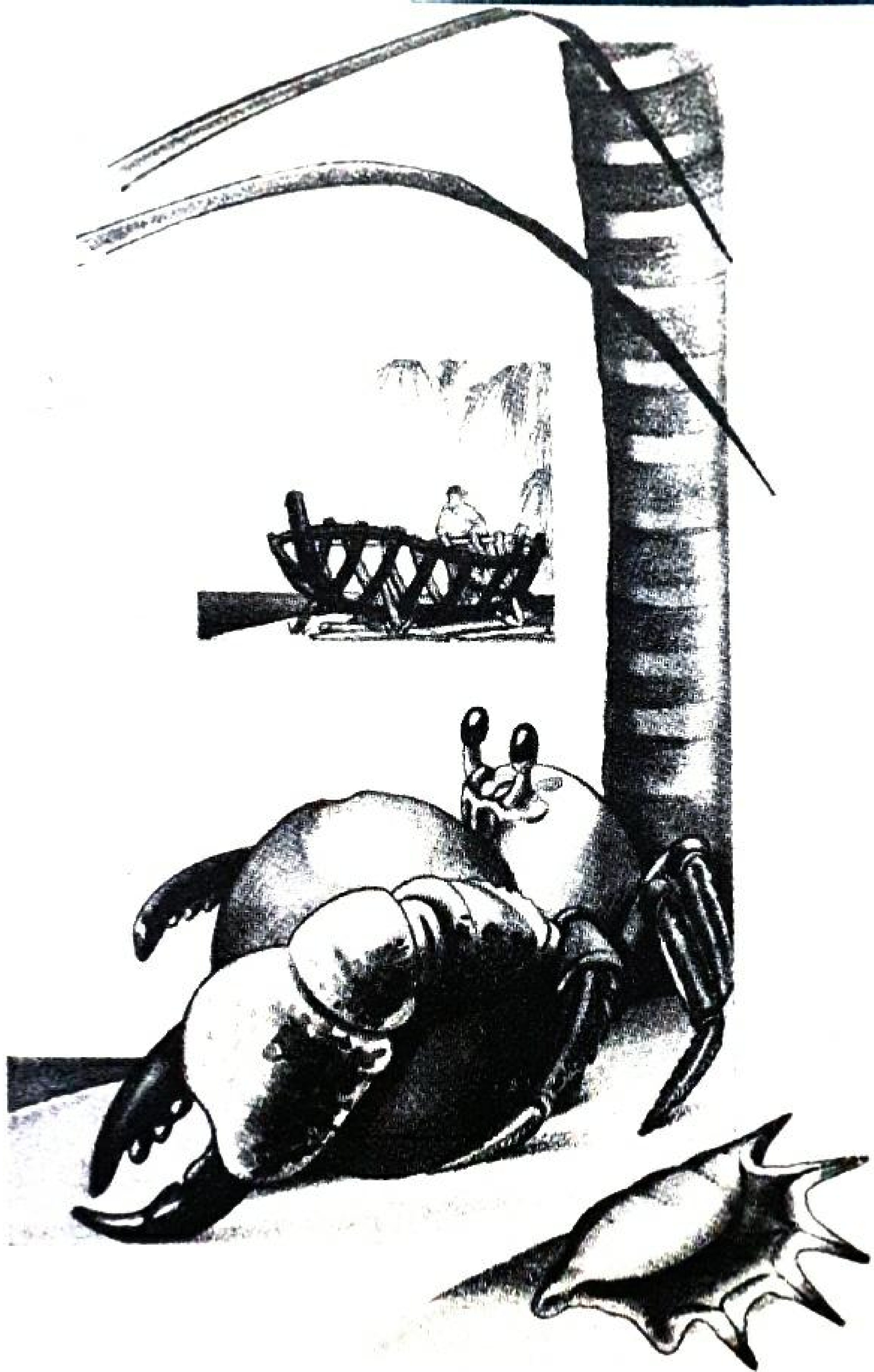
انصرف الى العمل سريعا، لابدون أن يستمر مراقبا، من مكان عمله، الأفق البعيد، لأنه كان لايزال يأمل إطلالة سفينة.

بعد تشذيب الجذع من الأغصان، انهال عليه بالفأس لكي يعطيه شكل عارضة مستطيلة. وهو رغم تنقيبه في بقايا «فرجينيا»، لم يجد مسامير ولابراغي ولامثقابا ولا حتى منشارا. كان يشتغل جامعا قطع المركب ببطء وتأنٍ. وكان يأمل أن تفعل المياه فعلها في الخشب، فتنفشه فتتماسك القطع بعضها ببعض، في

متانة تقطع حاسمة تسرب المياه. وعن له ايضا أن يقوي بالنار أطراف القطع، ثم يبللها بالماء بعد جمعها، لحشرها في مكانها بشكل أمتن. وكان الخشب غير مرة يتشقق تحت تأثير الماء أو النار، فيعيد روبنسن الكرة بدون تعب ولانفاذ صبر. وأكثر ما كان يفتقد اليه: المنشار، اذ كان سيوفر عليه أشهرا من العمل بالفأس والسكين.

وذات صباح، خال أنه مازال يحلم، وهو يسمع، عند استيقاظه، صوتاً لايمكن أن يكون إلا صوت منشار يعمل. أحيانا كان الصوت يتوقف، كأنما الناشر ينتقل من حطبة الى أخرى، ثم يعود الصوت في انتظام رتيب.

خرج روبنسن على مهل، من حجره في الصخرة حيث اعتاد أن ينام، وتوجه على أطراف أصابعه صوب مصدر الصوت. في الدقائق الأولى لم ير أحدا. لكنه، بعد لحظات، وجد عند جذع نخلة سلطعوناً هائلا ينشر بكلابتيه جوزة هند صرها بين قوائمه. وحانت من روبنسن التفاتة الى فوق، فألقى، على علو ستة أمتار، سلطعونا هائلا آخر ينشر عنق الجوز ليوقعها على الأرض



فيتلقفها رفيقه تحت. ولم يبد على السلطعونين أي انزعاج من وجود روبنسن، فأكملا، بكل هدوء، عملهما الصاخب.

وبسبب فقدان الطلاء، وحتى القطران، لدهن الهيكل، اضطر روبنسن الى صنع الصمغ، فكشط تماماً قطعة من الشجر الحرجي كان احتاط فوضعها جانبا منذ بدئه العمل.

وطوال خمسة وأربعين يوما، تمكن من كشط القشرة الخارجية عن عدد من الأشجار، وجمع القشور الداخلية وتقطيعها الى قدد مستطيلة. ثم غلى في مرجل كبير ولمدة طويلة، تلك القدد، وأخذ يشهدها تتفتت تدريجيا وتتحول الى سائل لزج وسميك. وراح يطلي بهذا السائل، وهو يغلي، هيكل المركب.

بعد أيام طويلة من العمل الشاق، انتهى «الفرار». وشرع روبنسن يجمع المؤونة التي سيحملها معه في رحلته الطويلة الى التشيلي. لكنه سرعان ما أوقف عملية الجمع، لتنبهه الى ضرورة العمل أولاً على إنزال المركب الى المياه للتأكد من حاله فيها. وهو كان يرهب تلك

النتيجة التي عليها يتوقف مصيره. فهل سيكون «الفرار» متيناً يحتمل البحر وأهواله؟ وهل سيكون محكما فلا يتفكك؟ ألن ينقلب عند أول موجة عالية؟ وأخذت الكوابيس المزعجة تصور له مركبه غارقاً في البحر فور ملامسته المياه، كحجر يرمى في الأعماق الخضراء.

أخيراً، قرر العمل على إنزال «الفرار». ولاحظ أنه أعجز من أن يجر على العشب ولا على الرمل، هذا الهيكل الذي يزن، على الأقل ، خمسمئة كيلو غرام. وهو كان سها عن هذه المشكلة خلال بنائه المركب. واكتشف، متأخراً، فداحة غلطته أنه لم يبن مركبه على الرمل، مباشرة عند فقش الموج.

حاول وضع حطبات مدورة تحت العارضة الرئسية، لجعل المركب ينزلق عليها، لكنه لم يتمكن من تحريكه شبرا واحدا. وأكثر: كسر لوحا خشبيا في الهيكل، وهو يلقي عليه بوتد استعمله مخلاً على حطبة.

وبعد ثلاثة أيام من الجهد الضائع، جحظت عيناه من التعب والغضب. وفكر بأن يحفر ـ انطلاقاً من حيث

فقش الموج ـ قناة الى الصخور حتى مكان المركب، ينزلق فيها هذا، فيلتحق بمياه البحر.

وانكب على هذا العمل، لكنه سرعان ماتنبه الى ان سنوات طويلة ستلزمه لتحقيق مأربه، فعدل عنه.





٦

من عادة الخنازير البرية، وأنسبائها في أمريكا الجنوبية، أن تخرج في أشد قيظ الصيف، فتبترد في مستنقعات الغابة، وتضرب المياه بقوائمها، حتى تحيلها وحلا سائلا، ثم تغوص فيه إلا رؤوسها، فتحمي، بذلك، أجسادها من الحر والبعوض.

ذات يوم، وقد شعر روبنسن بثبوط همته بعد فشل «الفرار»، تسنى له أن يتابع قطيع خنازير برية أمريكية، شاهدها تختلس الطريق الى ممرغها الموحل. وكان بلغ الحزن به والتعب ماجعله يفكر بالعمل كما تلك الحيوانات. فنزع ثيابه وانزلق في الوحل الرطب، حتى عينيه وأنفه وفمه.

واعتاد على ذلك، فبات يمضي أياماً كاملة يغفو وسط

عدسات الماء وزهر النيلوفر وبيوض الضفادع. انما كان يقلق تفكيره ذاك البخار الفائح من المياه الآلسنة، والذي يجعله يحس مرات أنه بين عائلته في يورك ويسمع مثل أصوات زوجته وولديه تتناهى اليه. ومرات أخرى كان يحس أنه طفل صغير في سرير، ويخال الأشجار، التي يهزها فوقه الهواء، كأنها أشخاص كبار حانون عليه.

وحين كان، مساءً يقتلع جسمه من الوحل الحار، كان يشعر بدوار، فلا يعود يستطيع المشي الا دابأً على الأربع، والأكل الا ووجهه الى التراب كالخنازير.

لم يكن يغتسل قط، لذا كانت تغلف جسمه، من أعلى رأسه الى أخمص قدميه، قشرة من التراب والوسخ الجافين.

ذات يوم، فيما كان يغسل باقة من البقلة المائية في مستنقع، خيل اليه أنه يسمع موسيقى، كأنها سمفونيا من السماء أو أصوات ملائكة ترافقها أنغام قيثار. ففكر روبنسن: أتراه يكون هو ميتاً، وهذه موسيقى الجنة ؟ سوى أنه، اذ رفع عينيه، رأى شراعا أبيض شرقي الأفق، فتوجه الى حيث «الفرار»، أي في حيثما أدواته وقداحته.



وهرع الى شجرة اليوكاليبتوس المجوفة، وأشعل بقداحته حزمة من الأغصان اليابسة ، ورماها في شدق الجذع. وما هي، حتى نشب في الفضاء إعصار فظ من الدخان. تأخرت النار في الاندلاع، ولكن، ماهم، فالسفينة كانت تتجه مباشرة صوب الجزيرة، وبعد دقائق سترمي مرساتها في الماء بمحاذاة الشاطئ، وسينحدر منها زورق النجاة.

راحت تنطلق من روبنسن ضحكات جنونية، وهو يركض في كل اتجاه، باحثا عن قميص وسروال وجدهما أخيراً تحت هيكل «الفرار». ثم هرع نحو الشاطئ وهو يظر وجهه ليمشط شعره ولحيته وهما جعلا لوجهه قناع حيوان.

اقتربت السفينة، ورآها روبنسن بكل وضوح ، تحني أشرعتها صوب الأمواج التي يعتمرها الزبد. انها سفينة شراعية اسبانية من تلك التي - في القديم - كانت تعبر المحيط ناقلة من المكسيك ذهبا وفضة وأحجارا كريمة. ومع اقتراب السفينة، بدأ روبنسن يتبين على سطحها حركات والتماعاً، كأنما على متنها احتفال. وبالفعل، كانت الموسيقى تنبعث من فرقة موسيقية مختصرة وجوقة

أطفال بالباس الأبيض، تجمعوا عند طرف المؤخرة. وكان غير ثنـائي يرقص برشـاقة حول طاولة مثقلة بالأواني الذهبية والبلورية.

لم يكن يبدو أن أحداً تنبه لروبنسن، ولاحتى الضفة التي ظهرت كاملة الى الشاطئ بعدما استدارت السفينة.

راح روبنسن يركض موازياً، على الرمل، سير السفينة في المـاء. كان يصرخ، يلوح بيـديه، يتو قف لحظات ليلم حجارة يروح يرميها باتجاهها. وكم مرة وقع ثم نهض ثم وقـع، حتى بلغت السفينة طرفا من الشاطئ تكثر فيه كثبـان الرمـل، ممـا يعيقه عن متابعتها عن اليابسة.

فارتمى روبنسن في المياه، وأخذ يسبح بكل قواه صوب السفينة التي لم يعد يرى منها سوى المقصورة المزدانة بالخيوط المقصبة.

على حافة احدى النوافذ، عند طرف الخرجة، كانت تتكئ صبيـة ترمقـة بابتسـامات حزينة. تذكر روبنسن أنه يعـرفها. لكنه لم يتذكرها. فتح فاه ليناديها، فاجتاحت المياه المالحة حلقة، ولم تعد عيناه تريان إلا مياه خضراء يهرب فيها شق بعيد.

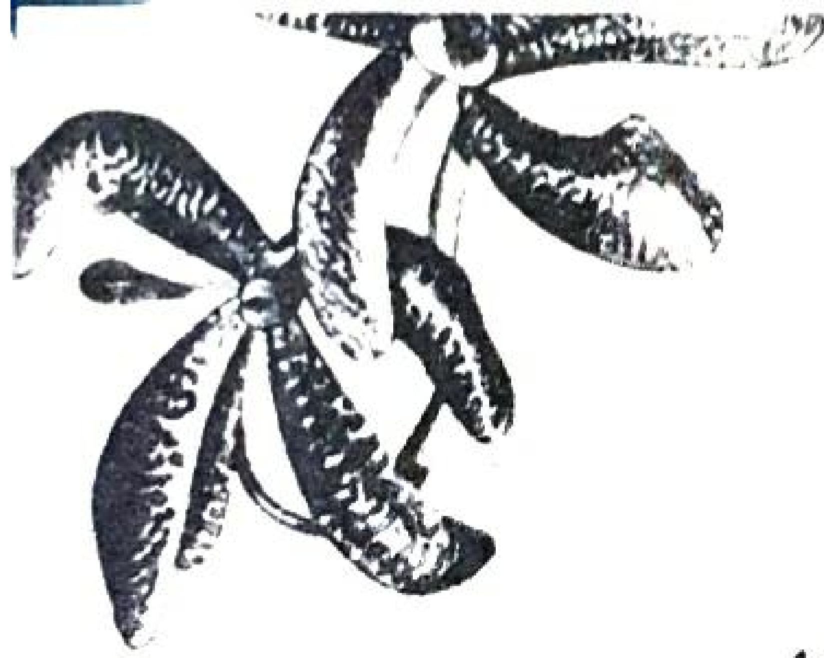
أيقظه من إغمائه عمود من النار. أحس ببرد شديد.

التفت، فاذا على قمة الصخـرة العالية تشتعل شجرة اليـوكـاليبتـوس، عصا حمراء في الليل الاسود. فاتجه نحوها طمعا بنورها وحرارتها . وأمامها ، قضى الباقي من ليلته منطوياً على العشب، وجهه صوب الجذع المشتعل وكلما خفت حرارة النار، زحف أكثر صوب الجذع ليدفأ بعد.

مع السـاعـات الاولى من الصبـاح، تذكر وجه تلك الفتاة التي رآها أمس الى نافذة السفينة. إنها شقيقته لوسي التي توفيت قبل سفره بسنوات. إذاً: تلك السفينة - وهي نمـوذج قديم جدا لم يعد متداولا في البحر منذ قرنين على الأقل - لم تكن موجودة فعلا. انها، إذاً، هلوسة من بنات خياله المتعب.

عندئذ، فهم روبنسن آن حمامات الوحل، وكل هذه الحياة العقيمة التي يعيشها، أخذت تؤدي به، تدريجياً، الى الجنون. وتلك السفينة الوهمية إشارة إنذار جدي. من هنا عليه التنبه والعمل والقبض باحكام على مصيره.

أدار ظهره للبحر، الذي لم ينفك يؤذيه باغرائه منذ بلوغه هذه الجزيرة، وتوجه صوب الغابة والجرف الصخري.



٧

طوال الأسـابيـع اللاحقـة، راح روبنسن يكتشف الجزيرة بانتظام، محاولا تحديد مواقع الينابيع والملاجئ الطبيعيـة، وافضـل البقع للصيد، وأماكن وجود شجر جوز الهند والأناناس والنخل الكرنبي. وجعل مستودعه العام داخل المغارة التي في الجرف الصخري عند وسط الجـزيـرة. والى هذا المستـودع، حمل كل ما استطاع تجميعه من حطام السفينة.

بعد تركيز الأربعين برميلاً من المسحوق الأسود، في عمق المغـارة، وضـع معهـا ثلاثة صناديق من الثياب وخمسـة أكياس من الحبوب وسلتين من أواني الطعام والفضيات، وعدة علب من البضائع المختلفة (شماعد، جواهـر، مهـاميـز، منـاظير، نظارات، سكاكين، خرائط

بحـريـة، مراء، نرد، مجمـوعـة من المعدات البحرية، أسـلاك، بكرات، خيطان، فوانيس، عوامات، وصندوق من القطع الذهبية وقطع النقود الفضية والنحاسية). أما الكتب التي وجـدها، في غرف السفينة المحطمة، فمياه البحر والمطر بللتها حتى محت سطورها تماما، مما حدا بروبنسن الى التفكير بتجفيفها في الشمس واستخدام صفحـاتها البيضاء لكتابة مذكراته، اذا ماوجد سائلا يقوم مقام الحبر.

ولم يطل به الأمر حتى وجد هذا السائل، حين رأى سمكة تفرخ قرب الجرف الشرقي. انها السمكة القنفذية التي، في لحظات الخطر، تنتفخ بالهواء حتى تصبح مثل الكرة ويصبح الهواء كله مضغوطا في جوفها، فتسبح على ظهرها بدون أن يبدو عليها أي انزعاج من هذه الوضعة في جسمها. واذ حرك روبنسن ، بعود كان معه، إحدى السمكـات الباقية على الرمل، لاحظ أن كل ما يلامس بطنها يمسي لونه أحمر فاقعا، يمكن استخدامه حبراً. فاستعجل ببري ريشه نسر وتمكن، بدون كثير عناء، من كتـابـة الكلمـات الأولى على ورقة. عندئذ، قرر تدوين

مذكراته يومياً في أكبر الكتب حجما. وعلى الصفحة الأولى منـه، رسم خريـطة الجزيرة، وكتب تحته الاسم الذي أعطاها اياه: «سبيرانزا» وهو يعني «الامل»، لأنه كان صمم على ألا يدع اليأس يعرف طريقه اليه.

بين حيوانات الجزيرة، أكثرها نفعاً: المعزى والتيوس المتوفرة بكثرة، انما على روبنسن تدجينها. ولكن، حتى لو تمكن من ملاطفة العنزات والاقتراب منها، لن تدعه حتما يحلبها. لذلك، بنى سوراً حزمه أفقياً بجذوع النباتات المحبوكة، وسجن داخله الجداء التي بثغائها تجلب اليها أماتها. بعدها، أطلق روبنسن الجداء الصغيرة، وانتظر أيـامـا، ممـا جعـل ضروع العنـزات تؤلمها لانتفاخها بالحليب، وتنقاد بسهولة الى الاحتلاب.

وكم خاب أمله حين عمـد الى تفحص أكياس الأرز والشعير والذرة، مما كان حمله من حطام «فرجينيا». ذلك أن الفئران عبثت ببعضها فلم يبق منه سوى القشور الممـرغة بالوحل، فيما البعض الآخر أتلفته مياه البحر والمطر. ولزمه أن يتنخلها حبة حبة، في عمل شاق وطويل.

سوى أن روبنسن تمكن من زرع مساحة حقول كان

أحـرقهـا ثم حرثهـا بقطعة معدنية أتى بها من حطام «فرجينيا» واستطاع فتح ثغرة فيها ليجعل لها زندا.

وهكذا، بعد نجاح روبنسن في تكوين قطيع داجن، وسهـل مزروع ، أخـذ يمدن جزيرته ولو بعمل بدائي محـدود، وظل يعتقـد بأن الجزيرة ستبقى أرضا برية وعدائية. من هنا أنه، ذات صباح، فوجئ بخفاش هائل منكب على جدي يمتص له دمه، والخفافيش تدهم، ليلا، الحيوانات النائمة فتمتص لها دمها.

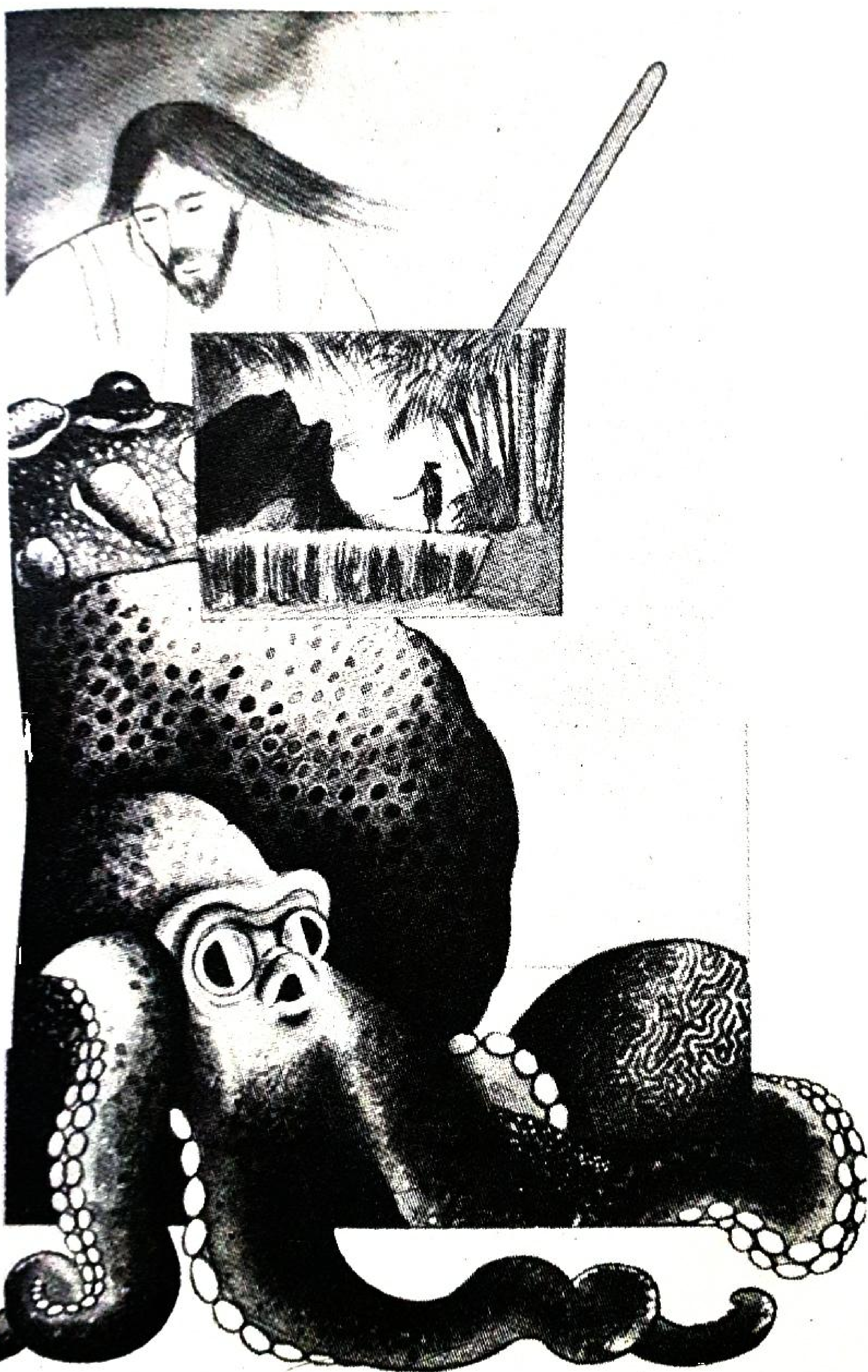
مرة أخرى، فيما كان يجمع الصدف عن الصخور المبللة بقطرات الماء، فوجئ برشق ماء على وجهه. أصابه دوار من الصـدمة، فتحرك خطوات ليلقى بعدها رشقا آخر جمده مكانه. وبحث، فوجد في ثقب أحد الصخور أخطبوطا صغيرا رماديا يقذف من فمه رشقات ماء بدقة مدهشـة. وذات يوم، وكـان روبنسن كسر السكة التي يقلب بها التراب، وأطلق أفضل عنزة حلوب لديه، عاد فوقع في ثبوط العزيمة.

ووجد نفسه من جديد يسلك طريق المرغ الموحل. وهنـاك، نزع ثيـابه وانزلق في الوحل الساخن. وماهي،

حتى حاصرته أبخرة الماء المسممة التي تحوم فيها غيوم من البعوض، ففقد حس الوقت. نسي الجزيرة ونسورها وخفافيشها وكل اخطبوط فيها. وغرق في إحساس أنه عاد ولدا صغيرا عند والده بائع الجوخ في يورك، وخيل اليه أنه يسمع أصوات والديه وأشقائه وشقيقاته. وفهم، هكذا، آنه لايزال مهددا بخطر الكسل وثبوط العزيمة واليأس، وأن عليه العمل الدؤوب والجلود لينجو من الخطر.

موسم الذرة بار كليا لأن مساحة الأرض التي زرعها روبنسن ذرة، اجتاحتها من جديد مئات الجرذان وأعشاب القراص الآكلة. إنما موسما الشعير والقمح نجحا، وذاق روبنسن أول فرحة قدمتها له جزيرته «سبيرانزا»: أن يداعب بيده تيجان السنابل الطرية. ولما آن أوان الحصاد، بحث عما يمكن أن ينوب به عن المنجل، فلم يجد سوى سكين بحرية كانت تزين غرفة القبطان وحملها روبنسن معه من حطام السفينة.

حاول في البدء أن يحصد بانتظام، خطوة خطوة، كما تسنى له أن يشاهد الحصادين في الريف حيث يسكن.



لكن ذاك السلاح اليدوي لم يسعفه على ذلك، فاجتاحته نوبة من الحمية الشرسة ، وراح يمشي ملوحا بالسكين فوق رأسه في كل الاتجاهات، وهو يطلق صرخات مذعورة. ولم يصب بهذه الطريقة الا القليل من السنابل، وانفراط القش مبعثرا بدون أية فائدة.

وبعدما حبب السنابل ووضع القمح في قطعة قماش مطويــة، ذرى القمح بدحرجته من سبلة الى أخرى، في الهواء الطلق، ذات يوم عاصف راحت فيه تتطاير القشور والبقايا في كل اتجاه.

اخيرا وجد ـ بكل اعتزاز ـ آن حصيلته بلغت ثلاثين غالونا من القمح وعشرين من الشعير. وكان هيأ لطحن حبـوبـه هاوناً ويده (جذع شجرة مفرغاً وغصناً متينا مستدير الرأس)، كما جهز الفرن لذلك.

وفجأة، قرر ألا يطحن ولايخبز، بل آن يبقي على كامل الغلة لبذرها في الأرض. وبحرمانه هكذا من الخبز، اعتقد آنه يقوم بعمل تضحوي ومنطقي. لكنه، في الواقع، كان يخضــع الى ميل آخر: البخل، الذي سيجر عليه الويل الكثير لاحقا.

بعيد هذا الحصاد الأول، عرف روبنسن فرحة بالتقائه «تن» رفيقه الكلب في «فرجينيا». قفز الكلب من دغل نابحاً، ومكوما عند رجلي سيده دلالة فرحته به. لم يعرف روبنسن كيف أمضى الكلب كل هذا الوقت في الجزيرة، ولا لماذا لم يوافه قبل هذا الوقت.

وكان إيجاد هذا الرفيق حافزا لروبنسن على أن ينفذ مشروعا حلم به طويلا: بناء بيت حقيقي، والكف عن النوم في العراء أو في زاوية مغارة أو عند جذع شجرة.

وحدد مكان البيت: قرب الأرزة الكبرى في وسط الجزيرة. فعزز أولا حفرة مستطيلة ملأها من الحصى المغطى بطبقة من الرمل الأبيض. وعلى هذا الأساس الجاف والرغاب (القابل للاختراق) بنى جدرانا من جذوع النخل المتراكبة. أما السقف، فمن سلال القصب، وفوقها طبقة من ورق التين بشكل قرميد. وأما الجدران من الخارج، فكساها بخليط من الرمل والطين. وجعل في أرض المكان الرملية الضيقة، بلاطا من الحجارة المسطحة غير المتناسقة، زاوج بينها ماامكن.

وبما جمعه من جلود المعزى، وغدائر الأسل وبعض

الأثاث المصنوع من قصب، والأواني والفوانيس التي أتى بها من «فرجينيا» والمنظار الطويل والسكين البحرية وبنـدقيتـين معلقتـين على الحائط، خلق روبنسن جوا مريحا وحميما لم يكن عرفه منذ زمن بعيد.

وأكثر: درج على عادة يومية، فأفرغ الثياب التي كانت في صناديق «فرجينيا» ـ وبعضها جميل وأنيق ـ وأخذ يرتـدي كل مسـاء للعشاء ثوبا مختلفا وسروالا طويلا وقبعة وحذاء.

ومـالبث أن لاحظ بأن الشمس لاتمكن رؤيتها من داخـل البيت الا في ساعات معينة من النهار، وأن من المفيد، لمعرفة الوقت، انشاء نوع من ساعة تعمل ليل نهار داخل البيت. وبعد تلمس غير طويل، اهتدى الى نوع من ساعة مائية، كالتي كانت تستخدم في الزمان القديم. وهو جعلهـا من قارورة زجاجية شفافة، فتح في قعرها ثقبا صغيرا تتقطر منه المياه قطرة قطرة الى وعاء نحاسي على الارض، ويلزم للقارورة، كي تفرغ كلها، أربع وعشرون ساعـة. لذا، زنر روبنسن الوعاء بأربعة وعشرين خطا دائـريـا متـوازيـا يحمل كل خط رقما. وهكذا، يعطي

مستوى الماء في الوعاء الوقت بالتحديد، لمجرد النظر اليه.

وأدرك روبنسن كذلك أنه بحاجة لروزنامة تفيده عن أيام الأسبوع واشهر السنة وعدد السنوات الغابرة. فهو لايعرف بالضبط كم مضى عليه من الزمن في هذه الجزيرة. هل مر عام؟ اثنان؟ أم أكثر؟

وقرر عودة البدء من الصفر، فجعل أمام بيته عموداً روزنامة، كناية عن جذع مقشور يحفر كل يوم حزا صغيرا، وكل شهر حزا اعمق، وعند نهاية الشهر الثاني عشر، يحفر رقم «١» كبيرا، دلالة على انقضاء العام الأول بحسب تقويمه المحلي.



٨

كانت الحيـاة تكمـل مســارها الطبيعي، وروبنسن يشعـر بالحـاجة تزداد الى تنظيم استعمال وقته. كان باستمـرار يخشى الوقوع في المرغ الموحل، ومع الوقت تحـول تصرفـه شبيهـا بالحيوان. فمن الصعب البقاء إنسانا، حين لا أحد معه يساعده. وازاء هذه الهوة من التفكير، لم يكن يجد علاجا الا العمل والمثابرة واستغلال جميع موارد الجزيرة.

حين بات في روزنـامته ألف يوم، قرر تشريع قوانين لجـزيرة «سبيرانزا». فلبس ثوبا احتفاليا، ووقف وراء منبر تصوره ثم نفذه، ليمكنه من أن يكتب واقفا، وفتح أجمل كتاب مغسول وجده في حطام «فرجينيا»، وكتب:

دستور جزيرة «سبيرانزا»

المادة الأولى: عين روبنسن كروزوه ـ المولود في يورك يوم ١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٣٧ ـ حاكما على جزيرة «سبيرانز»، التي في المحيط الهادى بين جزر خوان فرنانديز وشاطئ التشيلي الشمالي. وبهذه الصفة، يملك جميع السلطات الاشتراعية على كافة اراضيها ومياهها الاقليمية.

المادة الثانية: يطلب الى جميع سكان الجزيرة التفكير بصوت عال.

(وبالفعل، كان روبنسن ـ إذ لم يكن معه أحد يتحدث اليه ـ يخشى أن ينسى استعمال الكلام. وكان بدأ يتعثر بلسانه، كما لو يكون شرب خمرا كثيرا، وبات لزاما عليه التحدث المتواصل الى الشجر والحجارة والغيوم، وطبعا الى المعزى، والى.. «تن»).

المادة الثالثة: يعتبر يوم الجمعة صياما كاملا.

المادة الرابعة: يعتبر يوم الأحد عطلة كاملة. وعند السابعة مساء السبت، يتوقف كل عمل في الجزيرة، وعلى السكان أن يرتدوا أبهى حللهم ويسعوا للعشاء. وفي العاشرة صباح الاحد، يجتمعون في الساحة العامة

للتداول بشؤون الجزيرة.

(بهذه المادة، ألزم روبنسن نفسه بالتصرف كما لو أن الجـزيـرة ملأى بالسكـان. فمن العبثي سن دستـور وقوانين من أجل رجل واحد. وكان يفكر أن قد يحمل اليه القدر رفيقا، أو ربما أكثر).

المادة الخامسة: يسمح للحاكم وحده تدخين الغليون، وما سوى مرة واحدة في الأسبوع: الأحد بعد الغداء.

(كان اكتشف قبلذاك بقليل، استعمال الغليوم ومذاقه، من الغليون الخزفي الذي كان للقبطان فان ديسل. سوى أن مؤونـة التبـغ لاتكفيه طويلا مع الاسف، لذا جعل استعماله مرة واحدة في الأسبوع).

وإذا انتهى من سن هذه القوانين، أخذ برهة تفكير قبل أن يضع بنودا جزائية لمن يخالف تطبيقها. فخطا بضع خطوات صوب باب بيته، وفتحه كاملا، فانبسطت أمـامـه طبيعة جميلة: كان ورق الشجر أخضر يحرك صفحتـه الهـواء، ويختلط في البعيـد بخط الأوقيانوس الأزرق. وأبعـد من هذا الخـط، لم يعـد الا السمـاء الصافية بدون غيوم، تمتد زرقاء زرقاء، انما... كلا: لم

تكن زرقاء تماما.

وقفـز روبنسن من مكانه، اذ رأى، صوب الشاطئ الكبير، تتصاعد غيمة من الدخان الأبيض. مع أنه متأكد من عدم تركه أي نار مندلعة في تلك الناحية. فهل يكون جاءه الى جزيرته ضيوف؟

ذهب الى الحائط، انتزع عنه البندقية، وحمل إجاصة من المسحوق الأسود، وكيسا من الخرطوش والمنظار الطويل. ثم صفر ل«تن»، وغاز في كثافة الصخور، متجنبا الطريق المباشر بين المغارة والشاطئ.

كان على الرمل الجاف ثلاثة قوارب طويلة (مصنوعة من تجاويف جذوع الأشجار)، ومعها عوامات ورقاصات. ورأى نحو أربعين رجلا متحلقين وقوفا حول شعلة نار يتصاعد منها دخان كثيف أبيض. ركز روبنسن منظاره على عينه، فتبين رجالا يشبهون هنود الساحل التشيلي، وهم شعب دحر المجتاحين وسبب للغزاة الأسبانيين خسائر دموية كثيرة.

حدق مليا، فوجدهم قصارا مربوعين، يرتدون مروايل غليظة من الجلد، وجوههم عريضة، عيونهم جاحظة

متباعدة، وحواجبهم منتوفة، وشعورهم سوداء طويلة وكثه يهزونها باستمرار معتزين. وروبنسن يعرفهم من أسفاره العديدة الى عاصمتهم تيموكو، ويعرف أن اذا استجد خلاف مع الاسبان، لن ينجو منهم رجل ابيض.

فهل تراهم قاموا، على متن قواربهم تلك، بالرحلة الطويلة من شواطئ التشيلي الى جزيرة «سبرانزا»؟ ليس هذا مستغربا عليهم، وهم البحارة البارعون. ولكن الأرجح أنهم استعمروا احدى جزر خوان فرنانديز. وفورا فكر روبنسن أن من حسن حظه كونه لم يقع بين أيديهم، لأنهم كانوا سيستعبدونه أو.. يقتلونه.

وبفضل قصص كان سمعها في آروكانيا، كان يحدس بمعنى مايشهده من احتفال أمامه على الرمل. كانت أمرأة عجوز نحيلة شعثاء تروح وتجيئ وهي تترنح وسط حلقة الرجال. تقترب من النار، ترمي فيها حفنة من مسحوق معها، وتتنشق الدخان الابيض المتصاعد. ثم تستدير صوب الهنود المسمرين حولها، تتفرس فيهم واحدا واحدا، خطوة خطوة، تتوقف أمام كل واحد منهم، ثم أمام الآخر، وتعود الى الشعلة، وتستعيد الطقس اياه

من جديد.

انها ساحرة مكلفة أن تجد، بين هؤلاء الهنود، واحدا مسؤولا عن أذية لحقت بالقبيلة: مرض، موت، موت غامض، حريق، عاصفة، موسم بائر.

و... فجأة، اختارت ضحيتها: امتدت يدها الطويلة النحيلة صوب أحد الرجال، فيما تتشدق بترديد تعاويذ لم يكن روبنسن يسمعها جيدا.

وماهي، حتى تقدم الهندي الذي اختارته الساحرة، وارتمى على بطنه أرضا، تهزه رعشات الخوف الشديد. اقترب منه هندي آخر، فرفع في الهواء سكينا هائلة (يستخدمها أداة وسلاحا معا) ونزع عن المحكوم مريوله، ثم انهال عليه بضربات متتالية منتظمة، قاطعا رأسه فيديه فساقيه. وتقدم أحدهم فحمل الجثة ـ بأجزائها الستة المقطوعة ـ ورماها في النار فتصاعد في الفضاء دخان أسود.

كان الهنود كسروا الدائرة، وتفرقوا متوجهين الى الزوارق للابحار. لكن ستة منهم، أخرجوا منها قربهم وتوغلوا في الغابة، فأسرع روبنسن الى الاختفاء بين

الشجرة، بدون أن يضيع بنظرة عن هؤلاء الذين جاؤوا يجتاحون أرضه. فهم اذا اكتشفوا معالم من حياته على الجزيرة، سوف يتتبعون أثره وسيصعب عليه الفرار منهم.

من حسن الحظ أن اول محطة ماء، كانت عند تخوم الغابة، فلم يجد الهنود حاجة للتوغل أكثر، بل ملأوا قربهم، وحمل كل اثنين قربة علقاها في عصا، والتحقوا برفاقهم المنتظرين في الزوارق. وكانت الساحرة مكومة على مقعد مميز في مؤخرة أحد الزوارق.

حين اختفت الزوارق الثلاثة في عمق الأفق، تقدم روبنسن من المحرقة، حيث تبين بقايا الرجل المقتول والمحروق بوحشية، لأن التهمة وقعت عليه مسؤولا عن كارثة حلت بالقبيلة.

شعر روبنسن بخوف وقرف وحزن، فعاد سريعا الى بيته ـ قصر الحاكم ـ واستعاد عمله في سن دستور جزيرة «سبيرانزا».

المادة السادسة: تعلن جزيرة «سبيرانزا» مكانا محصنا. وهي موضوعة تحت امرة الحاكم الذي يحمل رتبة قائد

أعلى. ونظام منع التجول إلزامي بعد ساعة من مغيب الشمس.

خلال الأشهر اللاحقة، أقام روبنسن حول بيته وعلى مدخل المغارة سورا ذا فتحات، يستحيل الوصول اليه بسبب حفرة، عرضها متران وعمقها ثلاثة، ودائما على حافة الفتحات الثلاث: البندقيتان والمسدس على أهبة اطلاق النار هكذا، في حال التعرض للهجوم، يستطيع روبنسن إيهام المهاجمين أنه ليس وحده في إطلاق النار وصد الهجوم عن «القلعة». وكذلك، وضع السكين الكبرى والفأس عند متناول يده، انما كان يشك في أن يتوصل الى الدفاع بالسلاح الأبيض لأنه زرع الفخاخ على محيط الحفرة، فلا يمكن أن يبلغه أحد وينتهي الى التشابك بالايدي.

أما الفخاخ، فجعلها من مجموعة الحفر الصغيرة المبعثرة، وفي قعر كل منها وتد جاهز للاشتعال، تغطية طاقات من العشب موضوعة على حصيرة رقيقة من النباتات العشبية.

وداخل التراب، عند أطراف الغابة، حيث المتوقع ـ

منطقياً - أن يتجمع المهاجمون قبل انطلاقهم، دس برميلين من المسحوق الأسود الذي يفجره بحبل كتان عن مسافة بعيدة. وأخيرا، جعل الممر العابر الحفرة متحركا يمكن التحكم به من داخل «القلعة».

وكل مساء، قبل أن يعلن ببوقة منع التجول، يقوم بجولة يرافقه فيها «تن» الذي بدا فاهما مايهدد جزيرة «سبيرانزا» وسكانها من خطر.

بعدها، يتم إقفال القلعة بدحرجة كتل من الحجارة الى أماكن محددة ترغم المهاجمين على ألا يسلكوا غير الطريق الذي يؤدي بهم الى الحفر المغطاة. ثم يعمد روبنسن الى سحب الممر/ الجسر وسد جميع الممرات، وأخيرا إعلان منع التجول.

بعد كل هذا، يأخذ روبنسن في تحضير العشاء، ومد المائدة في بيته الجميل، والانسحاب الهانئ الى داخل المغارة، ثم الخروج مستحما معطرا مسرح الشعر مشذب اللحية لابسا ثياب القائد العام.

وأخيرا، وعلى نور ش[illegible] ـدان كبير محفوف بعيدان مطلية بمادة صمغية لزجـ[illegible] ونسن يتناول عشاءه ببط، تحت أنظار «تن» الحميم ا[illegible] شديد الانتباه.





٩

هذه المرحلة من التحرك «العسكري» الناشط، أعقبتها مرحلة أمطار غزيرة. واظطر روبنسن أن يستدرك الأضطراب باجراء تصليحات عديدة في البيت والممرات والطرقات المتضررة من كثرة السيول وتسرب المياه. بعدها، كانت مرحلة حصاد الحبوب وافرة وخيرة، مما استلزم تنظيف وتجفيف مغارة أخرى قرب الأولى الكبيرة التي ضاقت بالحبوب. وهذه المرة، لم يحرم روبنسن نفسه من لذة الخبز، يذوقه لأول مرة على هذه الجزيرة.

سوى أن فيض الحبوب جر على روبنسن مشكلة جديدة: صد الجرذان، إذ ازداد عددها بوفرة الغلال. وبمقدار ماكان روبنسن ينوي تكديس المواسم واحدا

فوق آخر، كان عليه الاحتياط لمنع الجرذان من إتلاف محاصيله.

ولاحظ أن نوعا معينا من الفطر الأحمر ذي الحبوب الصفـراء يمكن أن يكـون ساماً، بدليل موت عدد من الجـداء التي أكلت بعضا منه فيما تقضم حشيشها. استـل روبنسن عصيرا بنياً من ذلك الفطر، غمس فيه حبـوبـا من القمـح نثرها على الممرات التي ستسلكها الجرذان. لكن هذه تسلت بها، ولم تسقط حتى مريضة منهـا. فعمد عندئذ الى بناء أقفاص ذات أفخاخ قلابة بشكل أبواب. انما تلزمه مئات من هذه الأقفاص، عدا اضطراره الى التخلص من الجرذان العالقة، بتغميسها في مياه الساقية والتفرج على احتضارها فموتها.

وذات يوم، شهد روبنسن شجارا عنيفا بين جرذين راحـا. بمعـزل عمـا يحيط بهما ـ يتدرجان على الأرض متشابكين بصاي غضوب، حتى انتهيا بخنق واحدهما الآخر والموت بدون ان ينفك تشابكهما.

تأمل روبنسن الجثتين، فوجدهما من نوعي جرذان مختلفين: الأول اسود فاحم مستدير منتوف الشعر، مما

ألف رؤيته في جميع السفن التي عرفها، والآخر رمادي أكثـر طولا وأكثف وبـرا، شبيـه بفئران الأحراج، مما صادف منه في حقول الجزيرة. ففهم روبنسن عندئذ أن الأول آت من حطام «فـرجينيـا» في صناديق الحبوب، فربمـا الآخـر يعيش على الجزيرة. ويبدو أن لكلٍ من النوعين أرضيته وموارده المغايرة، تأكد روبنسن من ذلك حين اطلق في الحقل ذات مساء جرذاً اسود ضبطه في المغاره ولاحظ من ارتجاف العشب حين راح يتسلل، أن مطاردة شرسـة تجـري، انتهت برذاذ الرمل عند سفح إحـدى التلعـات، حين بلغهـا، لم يعد باقيا من الجرذ الأسود الا طاقة من الوبر الأسود ومزقا من اللحم.

عندها، نثر في الحقل كيسين من الحبوب، بعدما زرع منهـا كل الخط من باب المغارة حتى الحقل. وكاد هذا البذل يكون مجانيا، لكنه لم يكن. فمع هبوط الليل، هجم الجـرذان السـود بالمئـات على الحبـوب، ممـا اعتبرته خاصتها، فتجمهرت الجرذان الرمادية لصد هذا الهجوم المفـاجئ. وكانت معركة ضارية، بدت آثارها في تشظي الرمل وسع الحقل كله، من تشابك الجرذان وتدحرجها

اثنـــين اثنـــين، ومن الصـــاي المتصـــاعـد بين الرمـل والأعشاب. نتيجة المعركة كانت متوقعة: الحيوان الذي يقاتل على أرض خصمه، يقتل لذا كانت الحصيلة يومها: موت جميع السود.

لم يكن روبنسن مرة مغناجا، ولاكان - على الأخص - يحب التطلع الى وجهه في المرآة. ومع أن هذا لم يحصل له منذ أمد بعيد، فوجئ كثيراً حين، أخرج مرآة من أحد صناديق «فرجينيا»، وتطلع الى وجهه.





١٠

لم يكن تغير كثيراً، سوى لحيته التي باتت أطول، وبعض التجاعيد الجديدة خططت وجهه . وما كان يقلقه: النزعة الجدية ومسحة من الحزن لم تكونا تفارقانه. حاول الابتسام، فصدمة عجزه عن ذلك. جهد في ثني عينيه ورفع طرقي فمه، ولكن، عبثاً، عجز عن الابتسام، فأحس كأن له وجهاً من خشب وقناعاً جامدا مجمدا في تعبير مقطب عبوس.

وبعد تفكير طويل، فهم أن ماانتابه، هو بسبب انفراده وحيدا . فهو، منذ زمن طويل، لم يجد أحدا يبتسم له، ففقد عادة الابتسام. وحتى لو أراد ذلك، تخونه عضلات خديه. واستمر يتأمل وجهه بنظرة قاسية في المرآة، وقلبه يعصر من الحزن. هكذا، وجد أنه يملك

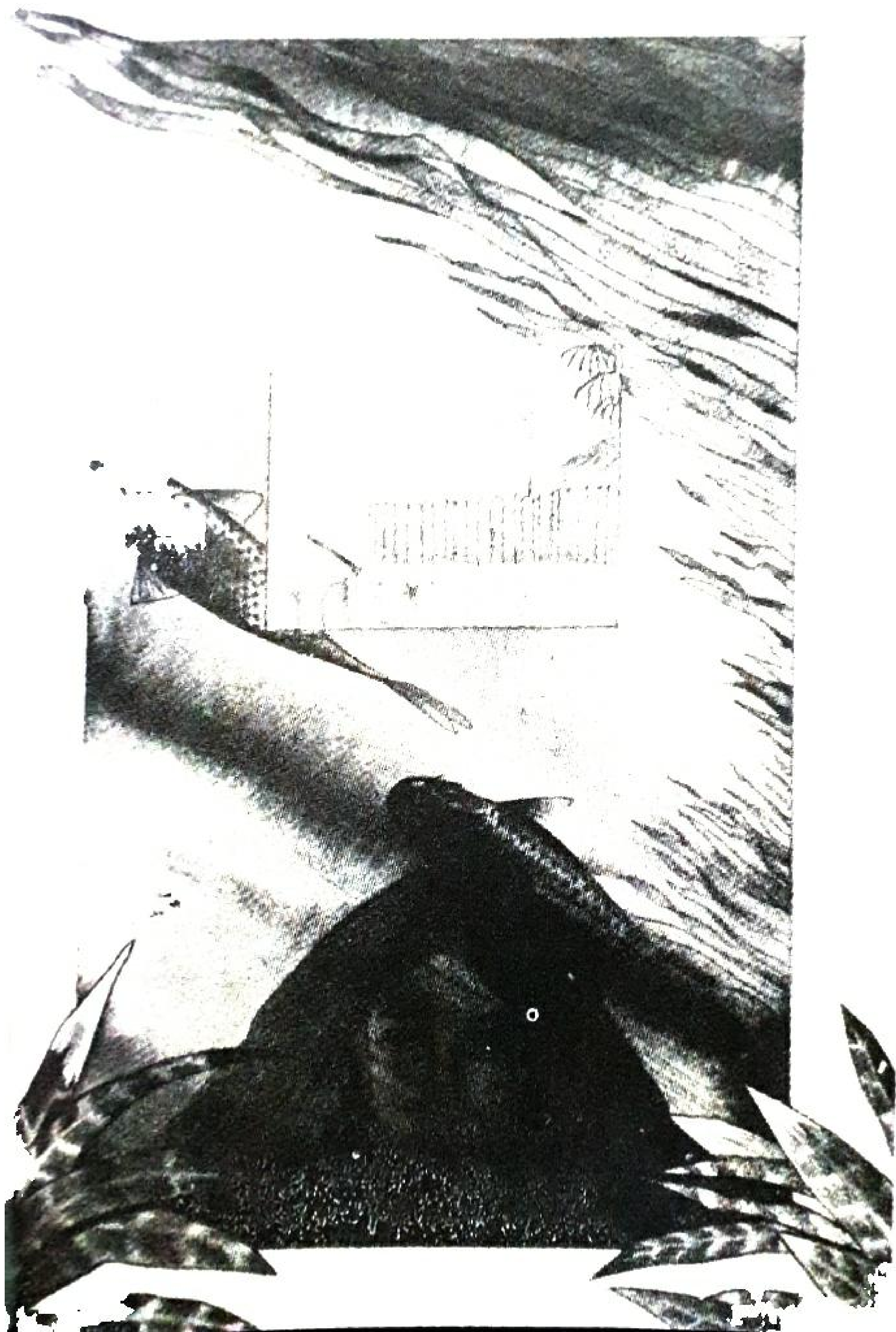
كل مايريد على هذه الجزيرة: طعاما وشرابا وبيتا وسريرا، الا الابتسام، تقزز دونه وجهه اذ لاأحد معه يبتسم له.

عندئذ، انحدر بصره الى «تن» ماذا! تراه يحلم؟ كأنما الكلب نفسه يبتسم له. كانت شفته السوداء من ناحية واحدة عند شدقة، ترتفع فيظهر خلفها صفان من الأسنان المعقوفة. وفي الوقت نفسه، أحنى رأسه على جنبه، فامتلأت عيناه الجوزيتان بالسخرية.

أخذ روبنسن بيديه رأس الكلب الأشعر، وابتلت جفونه تأثراً، فيما ارتجاف خفي يحرك ملتقى شفتيه.

بقي «تن» على حركاته، وروبنسن يتأمله شغوفاً بتعلم الابتسام من جديد. ومنذئذٍ، بدأت بينهما كما لعبة جديدة. وفجأة، أوقف روبنسن كل عمل له وكل صيد وكل نزهة على الرمل، ليتأمل «تن» ويتعلم منه. وكان الكلب يبتسم له على طريقته، حتى عاد وجه روبنسن الى طراوته وإنسانيته واستعادة البسمة تدريجياً على قسماته.







١١

لم ينفك روبنسن ينظم جزيرته ويمدنها، ويوماً فيوماً راحت تزداد أعماله والتزاماته. فعند الصباح، بعد الهندام، يقف منتصباً أمام السارية، فيرفع العلم الانكليزي. بعدها، يفتح باب «القلعة»، بشق الممر فوق الحفرة، وعزل ماتراكم عليه من حجارة.

ويبدأ النهار بحلب المعزى، ثم بزيارة مصاد الارانب البرية، الذي ابتناه روبنسن في مكان رملي. وهناك، يروح يحرث اللفت البري والنبات الكلاي ومربعا من الشوفان لتجميع أسرة من الارانب البرية التشيلية كانت، قبل، مبعثرة في أنحاء الجزيرة. وهي من فصيلة الأغوطيات (حيوانات أميركية من القوارض بحجم الأرانب) عالية القوائم ، سمينة، قصيرة الأذان.

لاحقاً، أخذ يلاحق مستوى أحواض الماء الحلوة التي يعيش فيها السمك النهري. مع حلول الظهر، يأكل بسرعة، مع «تن» ويستريح في قيلولة قصيرة، ينهض بعدها ويرتدي البزة الرسمية للقائد العام، ليقوم بمهماته الرسمية بعد الظهر. فعليه إحصاء السلاحف البحرية، ولكل واحدة رقمها الخاص، وتدشين جسر من جذوع النباتات الطويلة، مبني فوق واد ينحدر مئة قدم وسط الغابة الاستوائية. كما عليه إنهاء بناء كوخ من الخنشار (نبات سرخسي) على حدود الغابة عند شاطئ الخليج، ليكون مركز مراقبة ممتازاً يرصد منه البحر فلا يراه أحد، ومربع استراحة ممتازاً في ظلال الورق الأخضر خلال أشد ساعات النهار قيظا.

أحياناً، كان روبنسن يضجر من جميع هذه الأعمال وهذه الالتزامات. وكم مرة تساءل عمن وما ينفع كل هذا. لكنه سرعان مايتذكر مخاطر الكسل، والمرغ الموحل الذي يوشك أن يعاود الوقوع فيه، إذا هو استسلم للكسل، فيعود الى العمل بكل حمية.



١٢

كان روبنسن ـ منذ أيامه الأولى على الجزيرة ـ استخدم في وسط الجزيرة مغارة يخبئ فيها غواليه: محاصيل الحبوب، مخزنات اللحم والفواكه، وفي العمق: صناديق ثيابه وأدواته وأسلحته وذهبه، وفي قعر العمق: براميل المسحوق الأسود ذات الطاقة على تدمير الجزيرة كلها. صحيح أنه لم يعد في حاجة الى البارود لبندقيته، لكنه كان مسروراً باقتناء البارود. فهو يطمئنه ويقوي فيه الشعور بالتسلط والحكم.

لم يبادر يوماً الى سبر عمق المغارة، لكنه كان أحياناً يفكر في ذلك بفضول. فوراء براميل المسحوق، نفق ينتهي بأخدود قوي المنحدر، صمم يوماً على سلوكه لمعرفة الى أين يؤدي.

كانت هذه المغامرة تفتقر الى عنصر مهم: الاضاءة. وهو لم يكن لديه سوى قناديل خشبية، في التوغل بها الى عمق المغارة خطر تفجير البراميل، بسبب المذرور من المسحوق على الأرض. وثمة، ايضاً، مشكلة الدخان الذي سيؤكسد الهواء فيصعب عليه التنفس. وفكر ان يثقب في المغارة نافذة تهوئة وإضاءة، لكن صلابة الصخر تجعل ذلك مستحيلا.

لم يعد أمامه، إذاً ، سوى حل واحد: اقتبال الظلمة ومحاولة الاعتياد عليها. لذا، توغل الى العمق، ماامكنه، مؤونته: بعض رؤوس الذرة ووعاء من لبن الماعز، وجلس ينتظر.

كان حوله، في تلك الظلمة الثقيلة، صمت ثقيل. وعرف أن الشمس بدأت تميل الى الشفق لأن مدخل المغارة، في وقت ما، بات مواجهاً أشعة الشمس التي اخترقته لحظات كادت خلالها المغارة تضاء حتى عمقها. وكان ذلك كافياً ليعرف روبنسن أن نهاره الأول من مغامرته، انتهى.

نام قليلاً، ثم نهض وأكل رأس ذرة، وشرب بعض اللبن

وعاود النوم. وماهي، حتى عاد الضوء من جديد. إذاً: مضت أربع وعشرون ساعة، خالها روبنسن حلماً. منذئذ، يفقد حس الوقت، بدليل أن الأربع والعشرون ساعةً التالية، مرت سريعة كذلك، ولم يعد روبنسن منتهياً الى ساعات نومه وساعات يقظته.

أخيراً، قرر أن ينهض ويتوجه الى عمق المغارة. ولم يطل به الوقت، حتى اهتدى ـ تلمساً ـ الى مايريد: فوهة نافذة عمودية، إنما ضيقة جداً. جهد أن ينزلق فيها. كانت جوانب الفوهة ناعمة كالجلد، إنما ضيقة. فعمد الى نزع ثيابه ودهن كل جسمه بباقي لبن الماعز، ثم أدخل راسه أولاً، وأخذ ينزلق بطيئاً في انتظام، كما ضفدعة في حلق حية تبتلعها.

وماهي، حتى وصل برخاوةٍ الى نوع من حجرة فاترة، لقعرها تماماً شكل جسمه مكوماً. فاستقر هناك متقوقعاً: ركبتاه الى ذقنه، ربلتاه مكتفتان، يداه على رجليه. وكان من الارتياح في هذه الوضعية، حتى أنه نام سريعاً. وكم كانت دهشته كبيرة حين استيقظ، إذ فوجئ بالظلمة حوله تحولت بيضاء. صحيح أنه كان لايرى شيئاً، بعد، انما

كان محاطا بأبيض لا بأسود. والحجر الذي تكوم فيه، كان دافئاً حتى جعله يفكر بأمه، فشعر بأنه محمول على ذراعيها وهي تهدهده مدندنة له حتى ينام. أبوه كان قصير القامة مريضاً، بينما أمه قوية البنية، طويلة، هادئة لاتثور، وتحدس فوراً بحقيقة ما في تفكير أولادها.

فذات يوم، وكانت في الطابق الأول مع جميع أولادها، والوالد غائباً، اندلعت النار في مخزن الطابق الارضي. كان المنزل عتيقاً، كله من خشب، فتسربت النار في أوصاله بسرعة. وإذ عاد بائع الجوخ سريعاً، أخذ ينتحب صائحاً، ودواراً في كل اتجاه من الشارع، وهو يشهد احتراق منزله وفي داخله زوجته وأولاده. فجأة، رأى زوجته خارجة بهدوء من بين ألسنة النار والدخان، حاملة أولادها على كتفيها وزنديها وظهرها ومريولها.

هذه الصورة، استعادها روبنسن في جحره، كشجرة منحنية بثقل ثمارها.

وتذكر أيضاً ليلة عيد الملوك، كيف كانت أمه تعجن الخميرة، وفيها حبة فول تشير الى الملك صاحب العيد. وفي لحظة، خيل لروبنسن أن الجزيرة كلها قالب حلوى



كبير، وأنه هو حبة الفول المخبأة في قعر الرقاقة المحشوة.

وتنبه الى ضرورة خروجه من هذه الوضعية، فتحرك بصعوبة، وخرج من الحجر. وإذ وصل الى عمق المغارة، تلمس ثيابه، فوجدها، ووضعها تحت إبطه ومشى بدون أن يرتديها، مستغرباً هذه الظلمة البيضاء حوله. تراه أصيب بالعمى؟ كان يتقدم الى مخرج المغارة مدندناً، حين، فجأة، صفعته أشعة الشمس على وجهه. كانت تلك، أشد ساعات النهار حرارة، حتى العظايات تهرب فيها الى الظل. ومع ذلك، كان روبنسن يرتجف من البرد، ويضم ساقيه واحدتهما الى الأخرى، وهما لزجتان من اللبن الباقي عليهما.

وهرع الى بيته، يخبئ وجهه بكفيه.

لاقاه «تن» فرحاً برؤيته مجدداً، انما مضطرباً من رؤيته عارياً وفي حالة من الوهن مريبة.



١٣

عاد روبنسن غير مرة الى عمق المغارة، كي يستعيد مذاق الهدوء الرائع من طفولته. واعتاد أن يوقف كل مرة، ساعته المائية، لان الوقت كان ينكسر في عمق المغارة. سوى أنه كان مضطرباً، ويخشى أن يكون الكسل هو الذي يجره الى المكان، كما كان يجره سابقاً الى الممرغ الموحل.

تغييراً لتشويش أفكاره، قرر زرع اكياس الأرز التي مازال يحتفظ بها منذ اليوم الاول. وكان كل مرة يتراجع أمام العمل الرائع في إنشاء حقل ارز. فعلى الحبوب أن تنمو تحت الماء، ومن هنا ضرورة مراقبة مستوى الماء دائماً. لذلك، تنفيذاً لقراره، اضطر الى وضع سدين في مكانين مختلفين من الساقية: الأول عند اسفل الساقية

لري الحقل، والآخر عند أعلاها، مع مخرج تحويل، لاطالة وصول المياه والتسبب بجفاف الحقل. وكان عليه إنشاء حواجز، ونصب بابين متحركين لفتحهما وإغلاقهما حسبما يريد. ولدى إتمام كل هذا، كان عليه انتظار عشرة أشهر للحصاد، وهو ماتم بنجاح بعد أيام من الجنى طويلة وقاسية.

غير مرة مر في بال روبنسن: لم كل هذه الجهود المضنية؟ ولكان يقوم بها لو كان معه زوجته وأولاده، أو حتى رفيق واحد. لكن وحدته القاسية كانت تجعل جهده بدون جدوى.

آدمعت عيناه لهذه الفكرة، وعاد الى عمق المغارة. وبقي فيه طويلاً هذه المرة، حتى وهنت قواه وخار جسمه، وأحس بانه سيموت في هذا الحجر.

فكر بوسيلة تعيد اليه نشاطه وشجاعته ليعيش رجلاً قوياً، ويقوم بكل ماعليه، من دون يأس ولاضجر. فتذكر أن أباه كان يعطيه دائماً أن يقرأ «تقويمات» بنيامين فرنكلين (الفيلسوف والعالم والسياسي الاميركي)، وفيها كتب مبادئ أخلاقية تنصف الذين يعملون ويربحون.

ومر في بال روبنسن ان يكتب تلك المبادئ ويوزعها في كل مكـان من الجـزيـرة، بطريقة يقرأها كيفما تحرك، فلا ييـأس ولايعتريه الكسل. وراح يحتطب جذوعاً صغيرة تمكن من جمعها على كثبان الرمل أحرفاً كونت العبارة التالية: «الفقر يحرم الانسان من كل فضيلة: فلا يمكن الكيس الفارغ أن ينتصب وقوفاً».

وعـلى جدران المـغـارة، ألصـق حجـارة صغـيرة كفسيفسـاء، شكـل منها عبارة: «اذا كان الكذب عيباً ثانياً، فالأول هو الدين، لأن الكذب يمتطي الدين حصاناً».

وفي مكان آخر، جمع حطيبات صنوبر مغلقة بكتان وممددة على بساط حجري، جاهزة للاشتعال، تشكل في ترتيبهـا عبارة: «لو كان اللؤماء يعرفون جميع حسنات الفضيلة، لكانوا باتو فاضلين بلؤمهم».

الى كل هذه، كان شعـار أطول منهـا جميعاً ـ عدد حروف وكلمات ـ وخطرت لروبنسن فكرة أن يجز ظهر كل عنزة لديه على شكل حرف من العبارة، فلربما تصدف أن تتحـرك العنـزات بشكـل تنتـظم فيه الحروف متتابعة

لتخرج العبارة بالشعار الطويل: «من يقتل خنزيرة، يقتل معها سلالات من الخنازير. ومن يصرف قطعة واحدة من خمسة فلوس، يقتل كومة من قطع الذهب».

وكاد يهم بأن يباشر عمله، حين ارتعش من مفاجأة وخوف: هو ذا لسان رفيع من الدخان الابيض يصعد في السماء الزرقاء، طالعا من المكان نفسه كما المرة السابقة. ولكن ... تلك الكتابات زرعها في آنحاء الجزيرة، ألن يستهدي بها الهنود اليه؟

هرع الى قلعته ـ يتبعه «تن» لاهثاً ـ وهو يلعن تلك الفكرة، خاصة بعد حادثة بسيطة تشاءم منها: فيما هو راكض مذعوراً من مشهد الدخان، اعترضه أحد تيوسه محني الرأس، فكاد يصطدم به، وصدمه «تن» فتدحرج نابحا من الوجع.

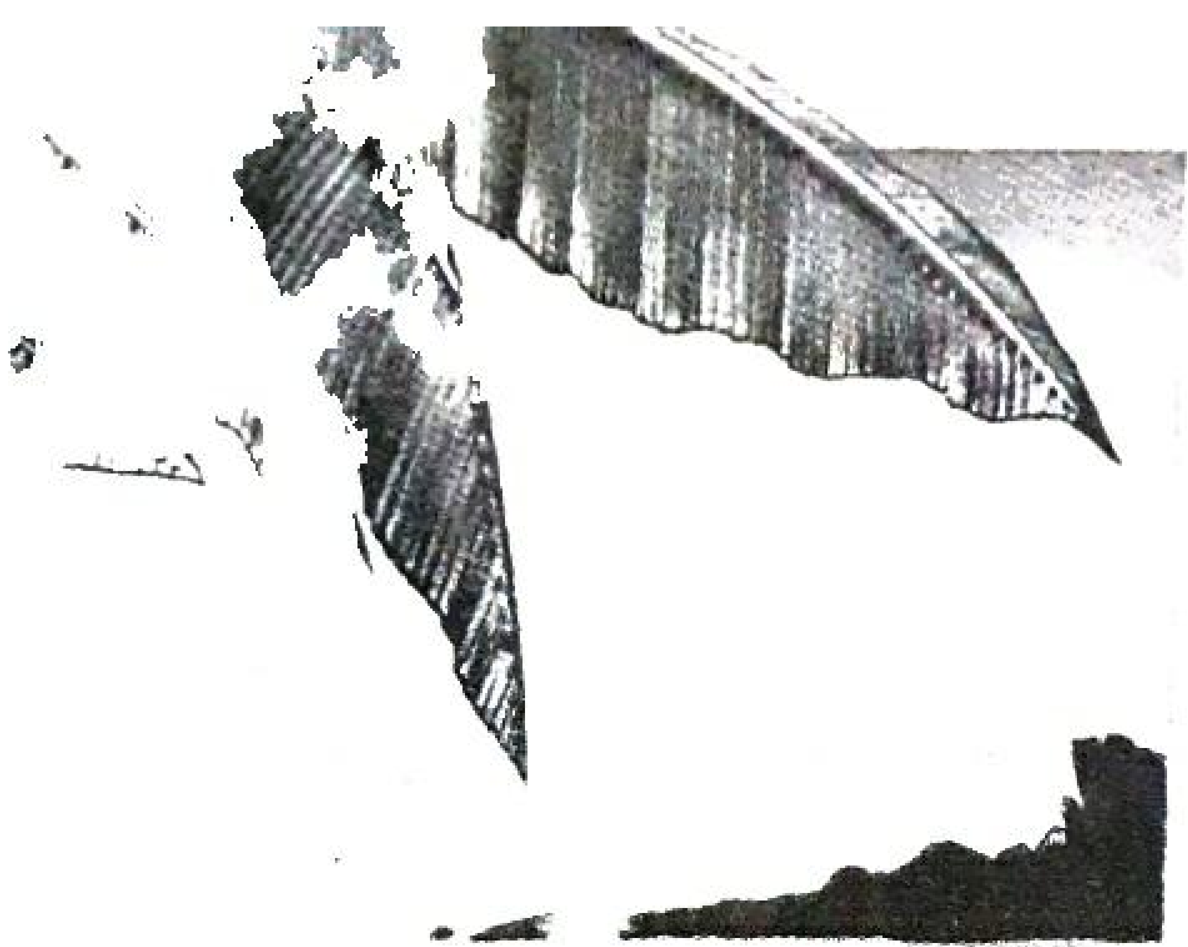
وما استقر روبنسن في قلعته ـ ومعه «تن» ـ واستعد لاي هجوم، وسحب المر، حتى أخذ يفكر إذا كان احسن التصرف. فلو شعر الهنود بوجوده، وقرروا اجتياح «القلعة» سيتمكنون منها بفضل عنصري العدد والمفاجأة: وعلى العكس، اذا لم ينتهوا له، وظلوا غائصين

بطقوسهم الاجرامية، يكون نجا.

وأراد أن يطمئن أكثر، فحشا بندقيته ودس مسدسه في حزامه، وخرج - يتعبه «تن» عارجاً - صوب الشاطئ متوغلاً بين الأشجار الكثيفة. لكنه عاد سريعاً ليجلب المنظار الطويل، فلربما احتاجه.

كان على الشــاطئ ثلاثة قوارب مسحوبة على الرمل متــوازيــة. ودائــرة الهنــود حول النار كانت أوسع من السابقة. حملق روبنسن جيداً بالمنظار، فاستنتج أنهم جمــع آخــر غير السابق. وكان في الوسط قتيل مسكين مقطع الأوصال، يحملها اثنان الى موقد النار.

فجأة، هبت الساحرة - وكانت مكومة على الارض في الوسط - وركضت صوب أحدهم، مادة يدها نحوه وهي تطلق التعاويذ. إذاً : اليوم، في الاحتفال، ضحيتان. بدا الهنود مترددين، لكن احدهم خرق الصف، والفأس في يده ، وتوجه صوب الذي رست عليه التهمة، وكان جاره الايمن وجاره الأيسر رميا به أرضاً. انهالت الفأس مرة أولى على المــحكــوم، فطار مريــوله الجلدي. وارتفعت مجدداً، استعدادا لتقطيع الأوصال، وقبل أن تهوي على





جسد المحكوم، كان هذا قفز على رجليه وفر راكضا بأقصى ما تساعده ساقاه متوجهاً صوب الغابة.

في المنظار، رآه روبنسن يراوح مكانه، والهنديان وراءه. لكنه، في الواقع، كان يركض مباشرة باتجاه روبنسن في سرعة مذهلة. لم يكن أكبر من رفاقه، بل أكثر نحولاً وطول ساقين للركض السريع. كان جلده أدكن، وأقرب الى العبد الزنجي منه الى الهندي. وقد يكون هذا سبب وقوع التهمة عليه، لأن المغاير بين المتشابهين يثير حسد هؤلاء وكرههم.

كان يتقدم ثانيةً ثانية، ويبتعد تدريجاً عن مطارديه. وكان روبنسن متأكدا من أنه ليس ظاهراً للعيان، والا لتأكد من أن الهندي رآه وهو يهرع للاحتماء به. وكان عليه أن يتخذ قراراً سريعاً: فبعد ثوانٍ سيبلغه الهنود الثلاثة، وقد يتصالحون ويفتدون الأمر بأخذه هو الضحية. وإذا ب«تن»، يختار تلك اللحظة بالذات ليطلق نباحاً قوياً مذعوراً صوب الشاطئ.

اللعنة! استدار روبنسن صوب الكلب، وكم له حطمه بيده اليسرى، فيما بالأخرى أمسك بندقيته وصوبها الى

صدر المطارد الأول الذي بات على ثلاثين مترا منه، وضغط على الزناد. ولحظة دوت الطلقة تحرك «تن» للافلات من قبضة سيده، فانحرفت فوهة البندقية، وفوجئ روبنسن بالمطارد الثاني يهوي على الرمل. فتوقف المطارد الاول، وجثم عند جثة رفيقه، ثم نهض وتفحص ستار الشجر عند ناحية الشاطئ وأطلق ساقيه في ركض مذعورٍ ملتحقاً بدائرة الهنود رفاقه.

على بعد أمتار، ووسط بقعةٍ اكتظ فيها نخل قصير، خر الهندي الناجي، جبينه الى الأرض، وبيده يتلمس رجل روبنسن ليضعها على رقبته، علامة الانصياع.





١٤

أمضى روبنسن والهنـدي ليلتهمـا وراء متـاريس القلعة، وآذانهما تترصد كل حركة ليلية في الغابة. وكان روبنسن، كل ساعتين، يرسل «تن» كل مرة، يعود بدون نبـاح الانـذار. أمـا الهندي ـ وكان يعقد حول خصره سروالا بحريا عتيقا أعطاه اياه روبنسن ـ فكان منهكا ومـذهـولاً من المغامرة الرهيبة التي اجتازها، ومن هذا المكان الذي وجد نفسه فيه. لم يذق حبة من كعكة القمح التي قدمها اليه روبنسن بل كان يمضغ، باستمرا حبوب فول بري استغـرب روبنسن من أين أتى بهـا. وقبيل الفجر، غفا على كومة من الورق اليابس، ضاماً بقوةٍ اليه الكلب النعسان هو الآخر.وتذكر روبنسن أن من عادة بعض الهنود التشيليين آن يضجعوا معهم حيوانا آليفا

كغطاء حي يقيهم برد الليل. ومع ذلك، استغرب أناة «تن» في احتماله هذه «المهمة».

وفكر: ترى، هل الهنود ينتظرون طلوع النهار ليقوموا بهجومهم؟ ثم قام، حمل مسدسه وبندقيته وكل ما استطاع حمله من مسحوق ورصاص، وانزلق خارج حرم بيته، صوب الشاطئ منعطفا عن طريق التلال.

كان الشاطئ مقفراً من الرجال وحتى من القوارب الثلاثة، ومن جثة الهندي الذي كان أرداه العشية بطلقة بندقية. لم يبق سوى الدائرة السوداء من النار السحرية، تختلط فيها بقايا العظام بالحطب الفاحم.

وضع روبنسن على الرمل سلاحه ومؤونته بشعور ارتياحٍ كبير. وانفجرت منه ضحكة مقهقهة متوترة. وحين انتهت، تنبه الى أنه، للمرة الأولى، يضحك منذ غرق «فرجينيا». تراه الآن بات يستطيع أن يضحك لأنه لم يعد وحده؟

ولدى تنبهه الى أنْ بات معه رفيق، هرع راكضاً لفكرة أتته: مركب «الفرار». وكم كان يتجنب المرور من تلك الناحية التي أصابته بخيبة مريرة. مع ذلك، كان المركب

هناك ينتظر الأيدي القوية تجره الى المياه. وقد يستطيع الهندي مساعدة روبنسن على ذلك، وعلى معرفته الكبيره بالجزر المجاورة.

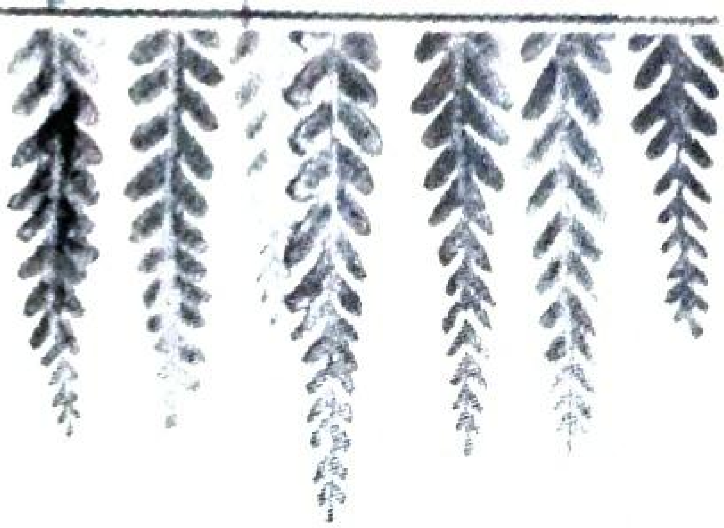
لدى عودتـه الى القلعة، وجد روبنسن أن الهندي، عاريـاً، يلاعب «تن». فحنق لوقـاحـة الهنـدي البري، وللصـداقـة التي نمت فجأة بينه وبين الكلب. وبعدما ألبسه سرواله الواسع جداً عليه، اصطحبه الى حيث «الفرار».

كان الوزال علا حوله، حتى بدا المـركب الصغـير سابحا على بحر من الزهر الأصفر. وجد صارية واقعاً، وألواح سطحه مايزال بعضها عالقاً، فيما البعض الآخر وقـع بفعل الرطوبة، لكن الهيكل كان يبدو سليماً. دار «تن» ـ وكان يتقدم الرجلين ـ عدة دورات حول المركب، ثم قفز فجأة الى السطح، فانهار تحت قفزته ماتبقى من ألواحه عالقاً. راح ينبح من الخوف في القعر. وحين وصل اليه روبنسن، رأى كيف تتكسر الألواح تحت «تن» عند محاولة له للخروج من القعر.

وضـع الهنـدي يده على حافـة الهيكـل، ثم ضمها

وفتحها تحت أنظار روبنسن، فاذا هي مبقعة بنشارة حمراء أخذت تتطاير في الهواء. عندها، أطلق روبنسن ضحكة مقهقهة، ورفس بطن الهيكل، فتطايرت غيوم من الغبار فيما انفتحت كوة في الهيكل: لقد كانت دودة الخشب نخرت جميع ألواح «الفرار» حتى... لم يعد صالحاً للاستعمال.





١٥

فكر روبنسن طويلا بما يمكن أن يسمي الهندي. ثم قرر أن يسميه باسم اليوم الذي لقيه فيه، وكان يوم جُمعة.

هكذا ، حمل المواطن الثاني في جزيرة سبيرانزا اسم «جُمعة».

بعـد أشهـر قليلة، كان جمعة تعلم بعض العبارات الانكليـزيـة الكافية للتفاهم مع سيده. كما تعلم كيف يستصلح أرضـا، ويحـرث، ويـزرع، ويمشط الأثلام، ويشتـل، ويعـزق (ينـزع الاعشـاب الرديئة)، ويجُز، ويحصد، ويدرس (السنابل)، ويطحن، ويعجن، ويخبز. وتعلم كيف يحلب العنـزات، ويصنـع الجبنة، ويجمع بيض السلحفاة ويصنع منها عجة البيض، وكذلك كيف

يرتق ثياب روبنسن ويمسح أحذيته.

بعدها ، يطري له سريره بعلبة حديدية مليئة جمراً. وأخيراً، ينصرف لينام على فراش عند الباب يتقاسمه مع «تن».

كان لروبنسن سبب آخر لسروره: بات من قيمةٍ لقطع الذهب والنقود التي حملها من حطام «فرجينيا» إذ أخذ يدفعها بدل أتعاب جمعه. نصف جنيه ذهب كل شهر. وبهذه النقود، يمكن لجمعه أن يشتري كميات إضافية من الطعام، وبعض الأدوات لاستعماله اليومي مما كان كذلك في حطام «فرجينيا»، أو ـ ببساطة أكثر ـ نصف نهار من الراحة، اذ كان ممنوعاً شراء نهار راحةٍ كامل. وكان ابتنى أرجوحة معلقة بين شجرتين، يمضي عليها أوقات فراغه.

كان الأحد أجمل الأسبوع. فصباحاً، يحمل العبد الى القائد الحاكم عصا تشبه صولجان الملك، ويرفع من الخلف خيمةً من الجلد الماعز فوق رأس القائد الذي يروح، بجلال، يتجول في الجزيرة، متفقدا الحقول ومساحات الأرز والبساتين والقطعان ومشاريع البناء

التي قيد الانجاز. كان يهنئ أو يؤنب، ويعطي تعليماته وأوامره للاسبوع التالي، ويخطط لمشاريع في السنوات المقبلة.

وقت الغداء، يكون عادة أطول مما هو عليه خلال أيام الأسبوع. وبعد الظهر، يروح جمعة ينظف الجزيرة ويجملها، فيجز الحشيش عن الطرقات، ويزرع بذور الزهر أمام البيت، ويشكب ا.ٔشجار.

وعرف جمعة كيف يجتذب اليه رفق سيده، بفضل غير فكرة جيدة أعطاه اياها. فأحد أكبر هموم روبنسن، كان التخلص من النفايات وبقايا الطعام، من دون اجتذاب النسور اليها والفئران والجراذين. ولم يعد دارياً ماذا يفعل: فالكواسر الصغيرة كانت تنبش في التراب مايكون طمره، والجزر والمد كانا يعيدان الى رمل الشاطئ مايكون رماه في البحر، والنار كانت تثير دخانا مقززاً يلوث البيت والثياب.

انقذ جمعة الموقف بالافادة من شراهة قبيلة من النمل الأحمر الكبير، اكتشفها قرب البيت. وهكذا، جميع البقايا، موضوعة في بقعة النمل، كانت تختفي بسرعة

هائلة، وتعرى العظام تماماً من نتف اللحم.

وكذلك، علم جمعة سيده استعمال «البولاس» ـ وهو سلاح منتشر في أمريكا الجنوبية، يتكون من ثلاث بكرات مترابطة بحبال مجموعة معقودة. أهميته أنه، اذا رمي بمهارة، ينطلق بزخمٍ دائراً كنجمة مثلثة، وما يصطدم بجسمٍ ما، حتى يلتف عليه ويوثقه باحكام شديد.

كان جمعة يستخدم البولاس بين قوائم العنزات التي يريد أن يضبطها ليضمدها أو يحلبها أو يذبحها. وبرهن لروبنسن إمكان استخدامه كذلك لالتقاط الايائل الصغيرة والطيور المائية الطويلة السيقان. وأقنع سيده بأن في تكبير حجم البكر، يمكن استخدام البولاس سلاحا خطيرا يشق صدر الخصم. واذ كان لدى روبنسن هاجس عودة الهنود، قدر فضل عبده باضافته الى مجموعة سلاحه، هذا السلاح الصامت السهل التبديل والقاتل الفتاك. وطويلا تمرن عليه، مع عبده، على الرمل، بعد وضع هدف لهما: جذع شجرة بقامة رجل.

وفتقت للهندي فكرة أن ينشئ له ولسيده جذعية

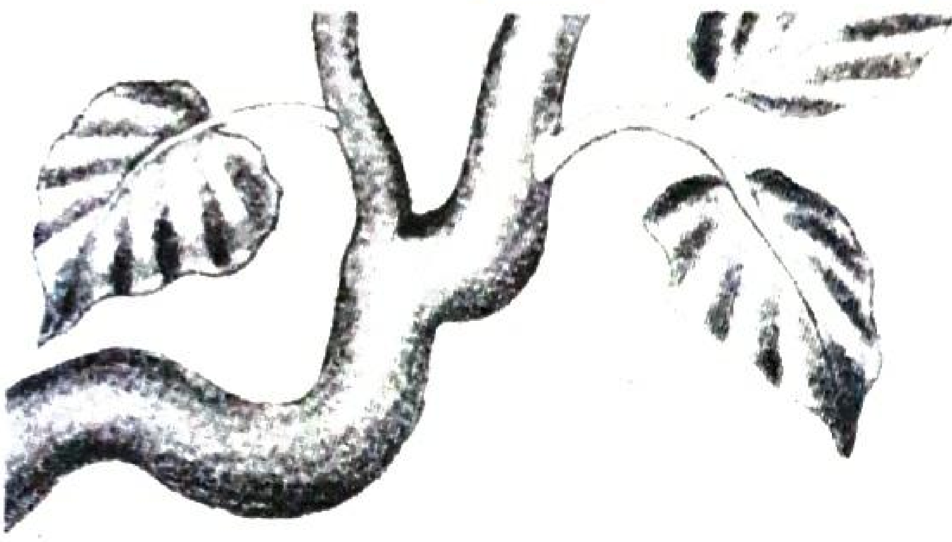


(زورق يتم صنعه بتجويف جذع شجرة)، كالتي في بلاده. فابتدأ يجوف بفأسه جذع سنديانة ضخماً. وكان عمله بطيئا وصبورا، عكس عمل روبنسن الحار والعاجل خلال بنائه «الفرار». ولأنه لم ينس خيبته بعد، لم يتدخل في عمل رفيقه وخادمه. وأخذ يتأمله، فرآه يشعل النار تحت قسم من الجذع ينوي تجويفه، مما يسرع العمل إنما يوشك أن يفسد كل شيء إذا امتدت النار الى الجذع كله. لذا، عدل عن ذلك، واكتفى بسكينة مستعيناً بها على إتمام عمله.

وعند انتهائه، كان الزورق خفيفاً حتى أن جمعة حمله بأطراف يديه فوق رأسه، ونزل به الى الماء، يتبعه «تن» قافزاً، ويلاحقه روبنسن من بعيد بنظرة متشائمة.

ولكن، حين أخذ الزورق يتهادى فوق الأمواج، عدل روبنسن عن تشاؤمه، وخرج من حسده، والتحق بخادمه ممتطياً وراءه ومتناولاً أحد المجذافين اللذين صنعهما جمعة من أغصان الآروكاريا (شجر أميركي جنوبي وأوسترالي من الفصيلة الصنوبرية).

وللمرة الأولى، دارا حول الجزيرة دورة كاملة، يتابعهما «تن» بنباحه على مدار الشاطئ الرملي.

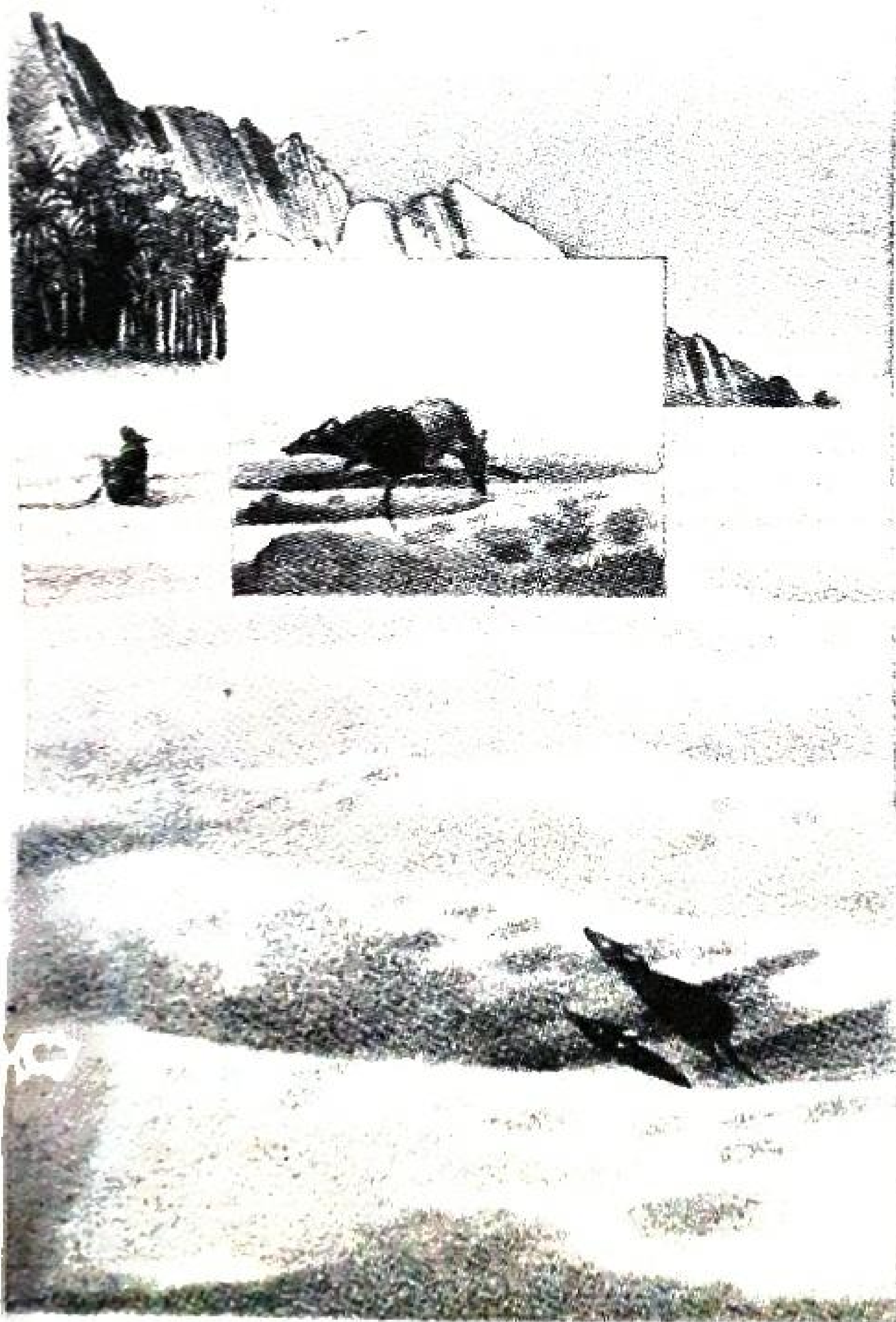


١٦

ظاهـراً، كان كل شئ يسير على مايرام. والجزيرة تزدهر تحت أشعـة الشمس، بجميـع زراعـاتهـا وقـطعـانها وبساتينها وبيوتها التي تنشأ أسبوعا بعد أسبوع. كان جمعة يعمل عملا شاقاً، وروبنسن يرتع بسيادته، فيما «تن» يزداد شيخوخة فتطول قيلولاته.

لكن الحقيقة أن ثلاثتهم كانوا يضجرون. جمعة كان مدجنـاً لاعترافه بالجميل، ويريد في كل وقت أن يرضي سيده الذي أنقذ له حياته. سوى أنه لم يكن يفهم شيئاً من كل هذا التنظيم والشعارات والاحتفالات، ولاسبباً لجميع هذه الحقول المزروعة والحيوانات المرباة والبيوت المنشأة.

وعبثاً شرح له روبنسن أن الأمر هو هكذا في أوربا



والبلدان المتحضرة. فهـو لم يفهم لماذا يجب ابتناء ما يمـاثـل ذلك، في جزيرة نائية من المحيط الهادئ. وكان روبنسن يشعـر أن جمعـة لم يكن يقدر، من كل قلبه، تنـظيم هذه الجـزيرة وإدارتها التي هي ثمرة جهوده. صحيح أن جمعة كان يجهد ما في وسعه لتقدير كل ذلك، ولكنه، عند كل فترة حرية، كان يرتكب حماقات.

فهـو، مثـلاً، يتصرف مع الحيوانات بطريقة غريبة. فالحيوانات، عند روبنسن، إما مفيدة أو مؤذية. تجب حمايتها لتتكاثر، والمؤذية تجب إزالتها وإبادتها تماما. وهـذا ماصعب فهمـه على جمعة. فهو أحيانا يصادق، بشغف، أي حيوان، مفيداً كان أو مؤذياً، وأحياناً يمارس على الحيوانات أعمالاً وحشية.

هكـذا، مثلاً، عن له أن يربي ويدجن زوج فئران. وحتى «تن» فهم ألا يقترب من ذينك الحيوانين البشعين لأن جمعـة يتولاهما. وانزعج روبنسن منهما فحملهما يوما في الزورق ورماهما في البحر. لكنهما عادا مع الموج الى الشـاطئ ورجعا الى البيت. فأعاد روبنسن الكرة، انما هذه المرة مع حيلة ناجحة: حمل معهما لوحا خشبيا

جافا، وضعهما عليه وتركه في البحر. فاذا بالفأرتين متشبثتان بهذا المركب المرتجل، لاتجرؤ ان على القفز الى الماء للعودة الى الشاطئ فحملهما البحر الى عرضه. لم يقل جمعة كلمة واحدة، لكن روبنسن شعر بأنه يعرف، كما لو ان «تن» أخبره بكل ماجرى.

ذات يوم آخر، غاب جمعة ساعات طويلة. وكاد روبنسن ينطلق في البحث عنه، حين رأى عمودا من الدخان يعلو خلف الأشجار عند الشاطئ. لم يكن ممنوعاً إضرام النار في الجزيرة، انما يجب إشعار الحاكم بالمكان والزمان مسبقاً، لعدم حصول إشكال مع النار الطقوسية التي قد يشعلها الهنود في حال عودتهم. وفهم روبنسن أن جمعة يقوم بما لايرضيه، طالما هو أشعل النار بدون إشعاره. فتنهد وخرج متوجهاً الى الشاطئ، بعدما صفر ل «تن» أن يتبعه.

لم يفهم للوهلة الأولى نوع العمل الغريب الذي يقوم به جمعة. فهو - على سجادة من الرماد المحروق - وضع سلحفاة كبيرة، قلبها على ظهرها. لم تكن السلحفاة ميتة، بل أخذت تحرك قوائمها بذعر وغضب. وخيل لروبنسن

أنــه سمــع صوتاً شبيهاً بالسعال، عرف أنه صراخها. واستغرب استغراباً شديداً: هل من يثير صراخ سلحفاة؟ ما به هذا هذا الهندي؟ هل مسه جنون؟

ولم يفهم هدف هذه العملية الغريبة الا حين رأى ذبل (درع) السلحفاة منتصبا مستقيما ومسطحا، وانفصل عن جسم السلحفاة، فيما راح جمعة، بسكينة، يقتطع ما بقي لاصقــا من الجسم على جوانب الذبــل الداخلية. وفجأة، تحركت السلحفاة على جنبها، خارجة من ذبلها، ثم استــوت على قوائمهــا، وأخــذت تقفز صوب البحر، يتبعها «تن» نابحاً، الى أن ابتلعها الامواج، فالتفت اليها جمعة بهدوء، وتمتم:

ـ تصرفت خطأً : بعد قليل ستفترسها السلاطين.

وبادر الى الذبل، يحف داخله بالرمل، فبدا كطبقٍ كبير معقوف. ثم التفت الى سيده ـ شارحاً انه درع. هكذا تصنــع الدروع في بلادي. لايخترقها أي سهم. وحتى البولاس يصطدم بها ويعود فلا يكسرها.

كان روبــنسن لائمــاً جمعــة على الوحشيــة التي استخلص بها الدرع. لكنه، لاحقاً، لاحظ كم انه عطوف

ورفيق بالحيوان الذي يتبناه.

وماتبناه: نسر صغير تخلى عنه ابواه. طير مرعب، كبير الرأس، جاحظ العينين، معكوف القائمتين، منتوف الريش، ملوي الجسم كذي عاهة. وكان يفتح منقاره الغليظ ويصأى كلما اقترب منه أحد.

بدأ جمعة يزقه شرائح اللحم الطازج، فيبتلعها بنهم. ولكن سرعان مابدت عليه علامات المرض، فبات ينام طوال النهار، وتحت زغبة الضئيل نتات حوصلته ككرة صلبة. ذلك أنه لم يستطيع مضغ تلك اللحمة الطازجة ولاهضمها، ولزم إطعامه لحوماً أخرى. عندئذ، آخذ جمعة يدع في الشمس أحشاء المعزى حتى تنتن. وما هي حتى بدأت تتجمع على قطع اللحم المقززة سرف الدود الابيض الكبير، فجمعها جمعة على صدفة كبيرة، ورماها في فمه يمضغها طويلاً، ثم يقذف من فمه في منقار النسر الصغير كل تلك المضغة اللعابية البيضاء. وتطلع الى روبنسن شارحاً:

- إنها دودات حية. فالطير مريض، ويجب مساعدته في المضغ. يجب دائماً مضغ الطعام للطيور الصغيرة قبل

إزقامها إياه.

انقبضت معـدة روبنسن تقززاً مما رآه ، فاستدار مبتعـداً كي لايتقيا. لكنه، في قلبه، كان يقدر في جمعة تضحياته حين يقرر مساعدة حيوان.



١٧

منذ وصول جمعة، لم يزر روبنسن عمق المغارة. كان يأمل أن يستطيع - بفضل رفيقه الجديد - الاستعاضة بالحياة اليومية والعمل والطقوس، عن ذلك الادمان المنفرد في المغارة.

لكنه، ذات ليلة قمرية، استيقظ ولم يعد يمكنه النوم. لم يكن الهواء في الخارج يحرك ساكناً، وبدت الاشجار الجامدة كأنها تنام هي أيضا، كما جمعة و«تن» المتعانقان، على عادتهما، عند الباب. شعر روبنسن بسعادة غامرة: انه الليل، ولاعمل فيه ولا احتفالات ولالباس ولاحاكم ولاقائد. عطلة كاملة. تمنى روبنسن ألا ينتهي الليل، فتطول هذه العطلة. لكنه يعلم أن النهار سيطلع، ومعه همومه والتزاماته. نهض وتوجه الى الساعة

المـائيـة فأوقفهـا. ثم فتح الباب وخطا من فوق جمعة و«تن»، وتـوجـه الى عمق المغـارة حيث الليل لاينتهي، والحلم لايصحو.

مع الصباح، ذهل جمعة من غياب سيده. كأنه نام ساعتين اضافيتين عن المألوف سيده لم يوقظه. وأحس بالانزعاج. مالعمل؟ كان عليه ري الملفوف وحلب العنزات وإتمام بناء عرزال المراقبة على قمة الأرزة الكبرى عند مدخل المغارة. ولكن، طالما روبنسن غائب، فجميع هذه الالتزامات غائبة مع الرجل الأبيض. أحس جمعة بأنه ميال لطاعة قلب الهندي فيه.

وقعت عيناه، تحت طاولة روبنسن، على صندوق مغلق غير مقفل، فجره على البلاط، وحمله على كتفه ، وخرج يتبعه «تن».

في الشمال الغربي من الجزيرة، حيث اطراف الحقل تختلط برمل الشاطئ كانت تزهر مساحة من الصبار ذي الأشكال والأحجام الغريبة، كأنها موكب عارضات أزياء من الكاوتشوك الأخضر، مشكوكا بقوارص، ومزركشات بكريات وراحات وأذناب وأبواق.

رمى جمعة الى الارض الصندوق الذي أرهق كتفه، فتشـظت مفصلات الغطاء، تناثرت على جذوع الصبار تلتمـع قطع من القماش الثمين والحلى. لم يفكر جمعة بارتداء هذه الثياب، بل بادر الى الصبارات ـ ولبعضها أشكـال بشرية ـ يلبسها طوال أكثر من ساعة، قبعات ومعـاطف وخمـارات وسراويـل وقفازات وملأها أساور وعقوداً وأقراط آذان وشعريات .ووجد في قعر الصندوق مظلات ومـراوح، فوزعهـا على الصبـارات بالتساوي. وابتعد قليلا يراقب هذه المجموعة من السيدات والأحبار والقهرمانات وسائر الأشكال الغريبة التي، بهذه الحلى الفضفاضة، بدت تتلوى كأنها تؤدي تحيات احترام أو كأنها ترقص «الباليه» وهي تراوح مكانها.

ضحـك جمعـة مقهقهاً، وأخذ يقلد تمايل الأشكال أمامه، فيما يرقص «تن» حوله وحولها بفرح غامض. ثم استدار جمعة، وتوجه صوب الكثبان التي تفصله عن الشاطىء.

كان الطقس ائعـاً، فراح جمعـة، مدندنا من فرح، يركض على رمـل الشـاطىء الابيض النـظيف. أحس

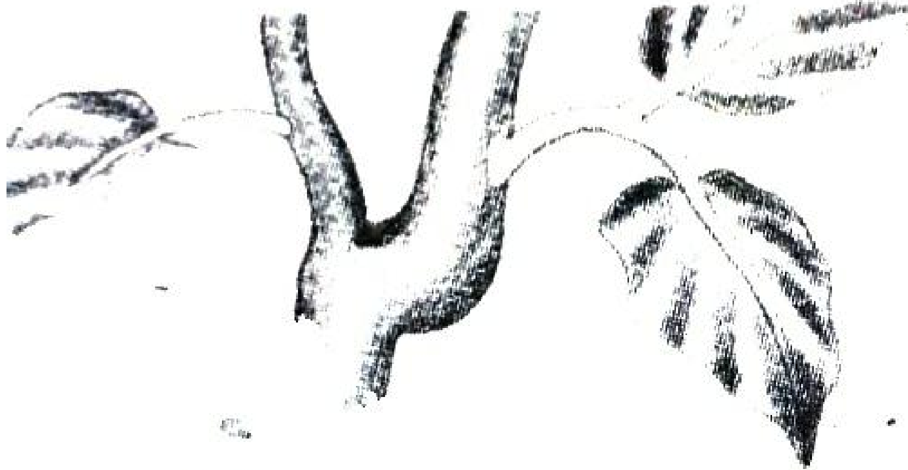
بارتياح خاص، وهو يمشي عارياً فرحاً، وحده في الشمس - يتبعه «تن» وهو طليق وحر التصرفات بعيدا عن هيمنة روبنسن المزعج. راح يلملم عن الشاطىء حصيات مستديرة خبازية اللون أو زرقاء أو منقطة، وعلى كل حال أجمل، ببساطتها وحقيقتها، من تلك الحلى الكبيرة المزخرفة التي علقها على الصبارات. أخذ يرميها أمام «تن» فيتبعه نابحاً ويركض يلملمها له. ثم رمى أمامه، في البحر هذه المرة، قطعاً من الخشب، والكلب يندفع بين الامواج، ضاربا بقوائمه المياه، وراجعا عند جمعة المسرور.

كانت هذه حالهما، حين وصلا الى حقل الأرز الملتمع تحت أشعة الشمس كمرآة صفحة المياه. التقط جمعة حجراً مسطحاً ورماه أفقياً ليلامس وجه المياه، فقفز الحجر سبع قفزات فوق السطح الهادىء، محدثاً فيه نبوات قبل أن يغرق في العمق بدون رشاشات. ومالم يتوقعه جمعة: اندفاع «تن» مجدداً ليجلب الحجر. وقد قذفه نحو عشرين متراً، حيث توقف لأن المياه بدأت عميقة، فلا يمكنه السباحة. راح يتخبط في مكانه،

واستـدار محـاولا العـودة الى الـهندي، فقفز مرة أولى وانسحب من الوحل، لكنه عاد فانغرز فيه، وأخذ يخبط خبط عشواء بذعر ونباح: كان بدأ يغرق. تقدم جمعة من الميـاه الوسخـة والخـطرة: هل يقفز فيها لينقذ «تن»؟ وخـطرت له فكـرة أخرى: هرع الى السكر الذي يفرغ المياه، ومرر عوداً في أول ثقب من المؤخرة، وضغط عليه بكـل ما أوتي من قوة، فجـرت المياه من السكر، وأخذ مستواها في حقل الأرز يهبط بسرعة. وماهي دقائق، حتى كان الحقل جافاً، والموسم بائراً، إنما بات بامكان «تن» أن يدب حتى أسفل الحاجز.

تركه جمعة يغتسل، واستدار متوجها صوب الغابة وهو يتراقص جذلاً.





١٨

حين خرج روبنسن من عمق المغارة ـ وكان مضى نحو ست وثلاثين ساعة ـ لم يعجب من افتقاده جمعة. كان «تن» وحده ينتظر، بكل إخلاص، على عتبة باب البيت، وعليه أمارات الانزعاج والشعور بالذنب. وهو الذي قاد روبنسن الى حقل الصبار الذي انتثرت عليه أجمل ما حمله عن حطام «فرجينيا» من مجوهرات، والى حقل الأرز حيث كان الموسم ييبس في الشمس.

ثار روبنسن في غضب شديد، فهرع الى السكر يقفله ويفتح قناة الري، لعل نبتات الأرز تستعيد نموها. ثم أمضى نهارا كاملا يلملم عن الصبارات قطع الملابس والحلى ـ أجمل ما يقتنيه في الجزيرة ـ وهو يدمي أصابعه بالشوك. وكان من الغضب، بحيث أحس هو أيضا بأنه

مذنب: كل هذا ما كان ليحصل، لو لم ينزو في عمق المغارة.

في اليوم التالي، قرر البحث عن جمعة، وكان غضبه هدأ، وبدأ قلقه على مصير رفيقه. صمم على تمشيط الغابة، مع «تن» الذي فهم ضرورة إيجاد جمعة، فراح ينبش كل دغل، وينحشر في كل غيل، ويتتبع النواحي التي روائحها تشبه رائحة جمعة.

وماهي، حتى نبح في فرجة من الغابة صغيرة، لاشتمامه ما قد يكون ملجأ جمعة. كان هناك، بين شجرتين، أرجوحة من الجذوع الطويلة، وعليها مخدة وفراش من العشب اليابس، مما يشكل سريراً معلقاً مريحاً. الى جانبه، وفي شبه مقعد كونته أغصان محبوكة، كانت دمية من قش ذات رأس خشبي وشعر من سعف النخل طويل، جعلها جمعة خطيبته كي لايظل وحيدا. وقرب الأرجوحة، في متناول من يتمدد عليها، وجد روبنسن مجموعة من الأغراض الصغيرة المسلية والمفيدة، يلهو بها الهندي في قيلولاته: نايا من قصب، أنبوبة، قلنسوات من ريش كتلك التي للهنود الحمر في

أمـيركـا الجنوبية، سهاماً، جلود حيات مجففة، بعض قيثارات صغيرة،...

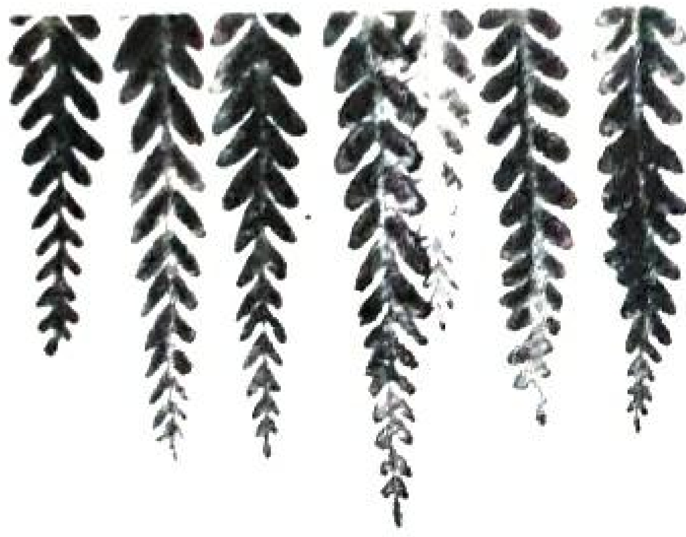
ذهـل روبنسن، ومـع الذهـول أحس بالحسـد من اكتشـافـه آن جمعة سعيد بدونه: فما نفع إذاً جميع الاعمال والالتزامات التي يتكبدها كل يوم؟

الدلائل تشير الى آن جمعة لم يعد بعيدا عن المكان. وفجأة، جمد «تن» أمام كومة من المغنوليا (نبات جميل الزهر والورق) يغطيها اللبلاب. تقدم خطوة خطوة بحذر، مرهف الأذنين ممدود العنق. وماهي حتى تحركت كومة المغنوليا، وانفجرت ضحكة جمعة. كان اعتمر تاجاً من الزهر والورق، واستعان بعصير الجينيبابو (نبتة تفرز من عنقهـا لدى كسره سائـلاً آخضر) فرسم على كامل جسمه أغصاناً وأوراقاً تتصاعد ملتفة على علو ساقيه وبدنه.

هكذا، بهذا التنكر في زي الرجل / النبتة، وفيما هو يطلق قهقهـات عاليـة، راح يدور حول روبنسن، وهـو يرقص في حركات احتفالية تشير الى نجاحه في خديعته.

ثم استدار وفر الى البحر يغتسل في مياهه.





١٩

عادت حياة الثنائي الى مجراها الطبيعي. وعاد روبنسن الى تلبسه دور الحاكم وقائد الجزيرة، فيما جمعة يوهم سيده بأنه يجهد للابقاء على معالم الحضارة في الجزيرة. لم يكن الا «تن» لم يكن يوهم احداً بقيلولاته شبه الدائمة طوال النهار. كان يتقدم في شيخوخته ويسمن وتتثاقل همته.

كان جمعة وجد تسلية جديدة: عثر على المخبأ حيث أخفى روبنسن علبة التبغ الخشبية والغليون الخزفي. وكلما سنحت فرصة له، يتسلل الى المغارة يدخن الغليون. ولو افتضح أمره مرة واحدة روبنسن، لعاقبه بشدة لأن التبغ كاد ينفد، فهو لم يعد يدخن منه الا نادرا، وفي المناسبات الكبرى.

يومئذ، كان روبنسن نزل الى الشاطىء يتفقد شقوقا اظهرها انحسار الجزر. فوضع جمعة العلبة الخشبية تحت إبـطه، وانـزوى في المغـارة حيث جهز له كرسيا



متمددا مسطحا من براميل مغطاة بأكياس. استلقى على ظهره في استرخاء، يمج من الغليون وينفث من رئتيه غيوماً زرقاء تروح تتبدد مع وصولها الى فتحة المغارة. واذا كان يهم بمج دفعة من التبغ، تناهت اليه أصوات صراخ ونباح مذعور من بعيد: إنه روبنسن عاد بأسرع من المعتاد، ويناديه بلهجة منددة. أخذ «تن» ينبح وسمع جمعة صعقة قوية: هو روبنسن استل سوطه ويهجم عليه. هل يكون اكتشف فقدان التبغ؟ نهض جمعة ومشى صوب العقاب الذي ينتظره. لكنه توقف فجأة: ماذا يفعل بالغليون الذي في يده؟ رماه بقوة الى عمق المغارة، حيث تتكدس براميل البارود، وخرج، بكل حمية، يلاقي سيده.

كان روبنسن في قمة غضبه. وما ان رأى جمعة حتى رفع سوطه وهجم يريد أن ينهال به عليه وإذ... في هذه اللحظة بالذات، انفجرت جميع براميل البارود، ونشبت من المغارة عاصفة هائلة من ألسنة النار الحمراء الغاضبة، قذفت بروبنسن عالياً، لكنه تمكن، قبل أن يفقد وعيه، من أن يلمح الصخور الكبيرة التي فوق المغارة، تتدحرج متطايرة كأنها أحجار لعبة أولاد.



٢٠

فتـح روبنسن عينيـه، فطالعه وجه حانياً عليه. انه جمعـة يسنـد له رأسه بيده اليسرى، ويحاول براحة اليمني أن يسقيـه ماء باردا. لكن روبنسن كان يصر أسنانه، والماء يسقسق حول فمه، سائلا على لحيته وصدره. ابتسم الهندي حين رأى سيده استعاد وعيه وتحرك. فنهض من فوق رأسه، وإذا بجزء من قميصه والساق اليسرى من سرواله، ممزقان ومسودان، وسرعان ما وقعـا أرضاً، فانفجر ضاحكا، ونزع عنه الباقي من ثيـابه. ثم التقط قطعة مرآة من بين الأغراض المكسرة، تطلع فيهـا الى وجهـه وهو يقوم بحركات ثم قدمها الى روبنسن وهو يضحك من جديد. تطلع روبنسن في المرآة: لم يكن مجروحا، لكنه ممرغ في الوحل، ولحيته الصهباء

نصف محروقة. نهض وراح ينفض عنه الخرق المفحمة العالقة به. تقدم بضع خطوات، وهو يتحسس الكدمات التي يكتشفها تحت طبقة السخام (سواد الدخان) والوحل والغبار.

التفت صوب البيت، فوجده مشتعلا ككومة قش، وصوب سور القلعة فوجده منهارا في الهوة التي تحته. وجميع المنشآت الأخرى (البيوت، المصرف، الحظيرة، عمود الروزنامة) تناثرت نتفاً متباعدة بفعل الانفجار.

كان الرجلان يتأملان هذا الحقل من الدمار، حين قفزت كومة من التراب نحو مئة متر في الهواء، أعقبها ـ بعد أقل من ثانية ـ انفجار هائل رماهما أرضاً من جديد، وتناثرت حولهما قطع الحصى ونتف الجذوع الممزقة. كان ذلك أحد براميل البارود، طمره روبنسن في الطريق الى «القلعة»، فانفجرت بفعل الفتيل المعقود به والذي من شأنه تفجيره عن بعد.

ومن الذعر الشديد الذي ولده الانفجار الجديد، القريب هذه المرة، هلعت العنزات جميعها الى الجبهة المقابلة، خالعه سياج الزريبة، وأخذت تقفز كالمجنونة في

كل اتجاه، متفرقة في الجزيرة، وعائدة الى حالتها البدائية الأولى.

مدخل المغارة كان مسدوداً بكتل صخرية، بينها صخر كبير توقف عند أعلى المدخل، مشكلاً مشهداً رائعاً مع البحر والجزيرة.

تطلع روبنسن حوله، وراح - آلياً - يلملم الأغراض التي قذفتها المغارة من جوفها قبل أن تسد مدخلها الحجارة والصخور. كان بينها بندقية ملتوية الأنبوب، وأكياس مثقوبة وسلال بلا قعر. وكان جمعة يقلده، إنما - عوض أن يتمثل به ويجمع الأغراض عند جذع الأرزة الكبرى - يروح يكمل تدميرها. تركه روبنسن يفعل، بدون انفعال، الا حين رآه يذر حفنة من القمح كانت باقية في قعر قدر.

مع المساء، وجدا سليماً فقط: المنظار الطويل، وبالقرب منه عند جذع شجرة... جثة «تن» تفحصها جمعة بدقة: لم يكن فيها أي خدش ظاهر ولا كسر. مسكين «تن» الهرم المخلص: قد يكون الانفجار قتله من... الخوف.





هب الهـواء ، فتـوجها الى البحر معاً يغتسلان، ثم تقاسما ثمرة أنانس برية، تذكر معها روبنسن أنها كانت أول ماذاقـه على الجزيرة بعد غرق «فرجينيا». بعدها، تمددا عند جذع الأرزة، محاولين النوم.

سوى أن روبنسن كان يفكر وهو يحدق بالقمر بين أغصـان الأرزة المكتـظة. هكـذا إذن: كل مابنـاه على الجـزيـرة (من زراعـات، ومواشٍ ، ومنشآت، ومؤونة وذخيرة جمعها في المغارة) ضاع دفعةً واحدة بسبب غلطةٍ من جمعة. ومع هذا، لم يحقد عليه. فالحقيقة أنه كان، منذ فترة، يشعر بالضجر من هذا التنظيم الممل والمنكد، ولم تكن له شجاعة تدميره. بينما الآن، كلاهما تحرر من كل طقسٍ وموجبات. تساءل روبنسن ـ بفضول ـ عما سيحصل بعد ذلك، وحدس بأن جمعة، منذ اليوم، هو الذي سيقوم بالمبادرات

كان لايزال يفكر محدقاً بالفضاء فوقه، حين رأى القمر يقفز فجأة خلف غصن ويعود يظهر خلف غصن آخر. ثم توقف لحظات ليعود ينزلق وحده في العتم بسرعة. وفي هذه اللحظة نفسها، سمع صوت خلع قوي سريعاً

برونسن وجمعة الى النهوض وقوفاً.

الذي حصل: لم يكن القمر هو الذي يتحرك بهذه الزلاقة، بل هي الشجرة الهائلة كانت تهوي. ذلك أنها كانت فحمت بالانفجار، فانفجر جذعها، وحين هب الهواء لم تصمد أمامه، فهوت بطولها ساحقةً تحتها عشرات الشجيرات، محدثة رجيجاً هائلاً من جراء ارتطامها بالأرض.





٢١

استهل جمعة الحياة الثنائية الجديدة بفترات طويلة من القيلولة. كان يمضي نهارات كاملة مستلقياً في حضن أرجوحته المعلقة بين نخلتين على شاطئ البحر. لم يكن كثير التقلب والحركة حتى أن العصافير كانت تحط باطمئنان على الأغصان قريباً منه، فيصطادها ببندقية، وعند المساء يشويها لروبنسن، وهي أفضل الطرق السهلة لتحضير الطعام.

كان روبنسن، من جهته، بدأ يتغير كلياً. من الشعر القصير واللحية الطويلة ، حلق لحيته (وكان أكثرها احترق بالانفجار) وأطلق شعره فطال، مشكلاً زرداً ذهبية على كامل رأسه. وبدا، هكذا، أصغر سناً كأنه شقيق جمعة، وانقشعت عنه مهابة الحاكم والقائد.

جسمه كذلك تغير: بعدما كان يخشى ضربات الشمس لشـدة ما هو أصهب، فيغـطي جسمه من رأسه حتى قدميـه كلمـا أراد الجلوس في الشمس، ويعتمـر قبعة ولاينسى أن يستظل مظلة من جلد الماعز، لأن جلده كان أبيض ورقيقـاً كجلد دجـاجـة منتـوفة الريش، راح ـ بتشجيـع من جمعة ـ يعرض جسمه للشمس. وبعدما كان باستمـرار متقوقعاً وخجولاً وعابساً، راح ـ ينفتح بسرعـة. فقسـا جلده واسمرت بشرته حتى بات فخوراً بصدره الممتلئ وعضلاته النافرة. وأخذ يتمرن مع جمعة على جميع أنواع الألعاب والحركات: يجريان على الرمل يمـارسان السباحة والقفز العالي ورمي البولاس وتعلم كذلك المشي على يديه كما رفيقه، وأن رجليه على الصخر ثم ينفصل عنه ويكمل على يديه تحت نظر جمعة وتصفيقه.

لكنه كان، خاصة، يتمتع برؤية جمعة يقوم بما يجب أن تكون عليه الحياة اليومية في جزيرة مقفرة على المحيط الهادئ.

فمثلاً: كان جمعة يمضي ساعات طويلة يجهز أقواساً

وسهـامـاً، بادئـاً بأقواس عادية بسيطة من الأغصان الطريـة كالجـوز والصنـدل والقطيفة (نبات من ذوات الفلقتين) والكبيبة (شجر من الفصيلة القرنية). ثم راح ـ وفق التقنية التشيلية ـ يصنع أقواساً مركبة (من عدة قطع) أصلب وأقوى وأكثر احتمالاً على الاستعمال. وعلى القوس العادي، كان يحبك نصيلات من قرون الكبش تضيف طواعيتها ومرونتها الى طواعية الخشب ومرونته.

سوى أن الحصة الكبرى من وقته، كان يمضيها في صنـع السهام. فهو يزيد قوة الأقواس كي يصنع لها سهـامـاً أطول، حتى توصل الى صنع بعضها من متر ونصف المتـر. وكـان السهم من ثلاثة أقسام: الأسلة (الرأس)، الغمـد (الجـذ ع)، الريش (الذيل): ويمضي جمعـة ساعات طويلة يوازي بين الأقسام الثلاثة فيما يرجح الغمد على حد حجر. فليس أهم لفعالية السهم من موازاة الأسلة مع وزن الذيل. لذا كان جمعة يريش ذيل السهم، ما استطاع، باستعمال ريش العصافير أو جريد النخل. ومن ناحية أخرى، كان لايستعمل للأسلة الحجر أو المعدن بل العظام، وخاصة منها ألواح عظم الكتف

لدى المعـز، فيجتـز عنهـا الأسل بشكل جوانح. وفهم روبنسن اخـيراً أن جمعة لايسعى الى قذائف محددة وقوية تخترق العصافير أو الأرانب، بل فقط يمكنها ان تطير عالياً وبعيداً وتبقى في الفضاء أطول وقت ممكن. فهو كان يطلق سهامه لا لتقتل بل للذته في أن يراها تعبر الفضاء مثل النوارس.

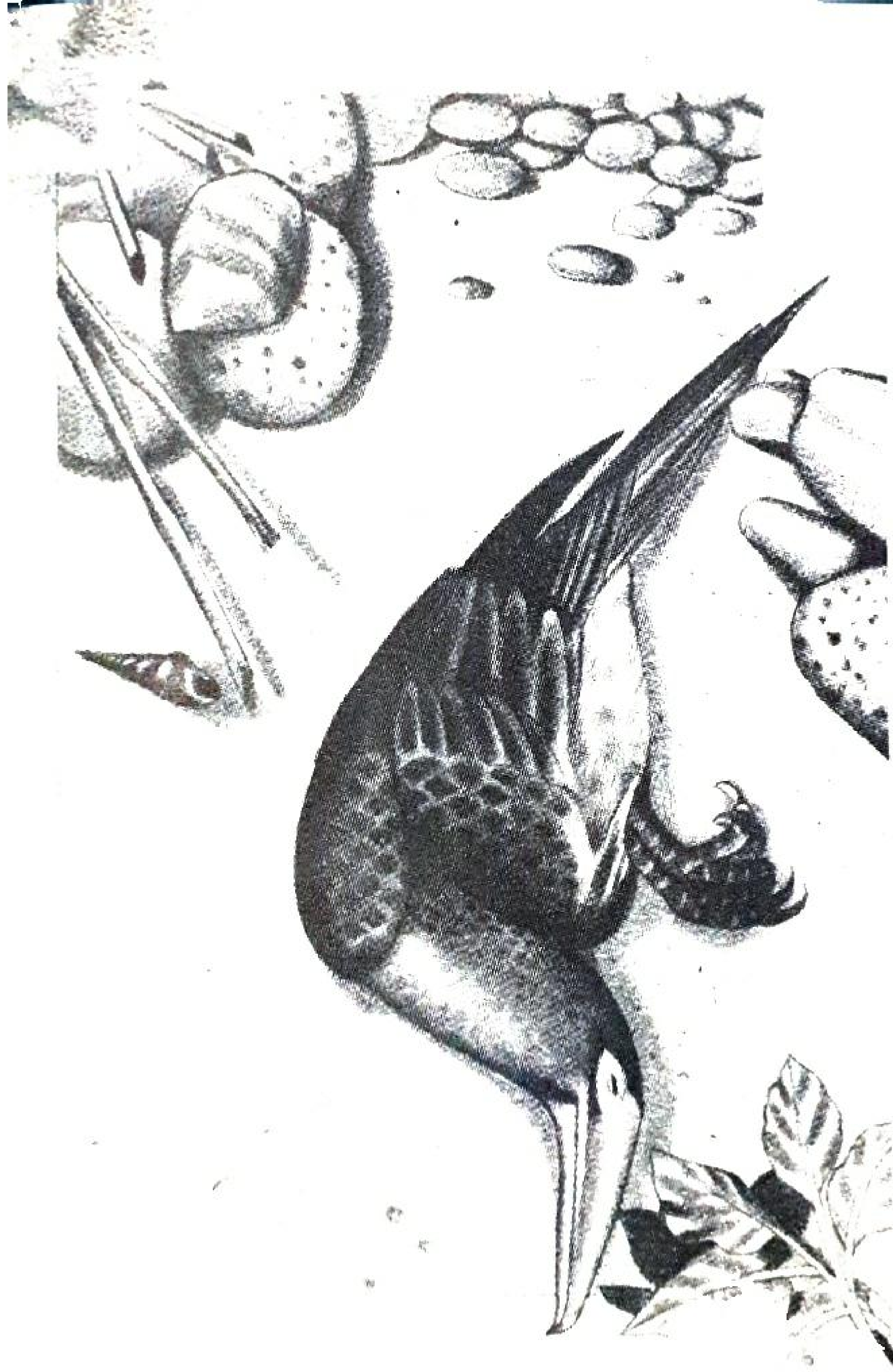
ذات يوم، وكان الهواء البحري يحرك الموج كما قطيع خرفـان، تطلع روبنسن فرأى جمعـة يصـوب سهـامه مباشرة قرص الشمس. وما هي حتى تناول منها سهماً طويـلاً، يزيد على مترين ـ مذيلاً بلا أقل من خمسين سنتيمتـرات ريش قطرس (طائـر بحـري كبير). ثم شد القـوس بكل قواه مصوبا ناحية الغابة بانحناء خمس وأربعـين درجة. وإذ ارتد حبل القوس بقوةٍ الى ساعد الايسر، انـطلق السهم نحـو مئـة متـر عالياً.ومع قمة ارتفاعه، عوض ارتداده صوب البحر، تحول الى الغابة، حتى اذا اختفى خلف الأشجار، استدار جمعة مبتسماً نحو روبنسن الذي بادره:

ـ سيسقط بين الأغصان ولن تعود تجده.

فأجابه جمعة:

- لن أعود أجده... صحيح. ليس لانه سيسقط بين الأغصان، بل لأنه... لن يسقط أبدا.





٢٢

قبل الانفجار، كان روبنسن يجعل جمعة يطبخ له ماتعلمه من عائلته في يورك. واذا كان، في أوائل أيامه على الجزيرة، يلجأ الى شوي اللحم على نار قوية، فهو عدل بعدئذ الى وجبات أخرى م كالبيض المسلوق، أفضل مايحبه الانكليز عصرئذ.

أما اليوم، فجمعة يعلمه وجبات هي إما من القبائل الآروكانية القديمة، وإما، بكل بساطة، من تركيبه. وكان المفضل، لدى جمعة، أي أكلة في أي مكان وأي وقت، أي بدون تحضير ولا أدوات وكان الانفجار أتلف الصحون والقدور، فبات جمعة يحضر العصافير المشوية في الصلصال، أبسط الطرق وأطرفها تسليةً لطهي الدجاج وسائر الطيور.

كان جمعة يفرغ الطير من أحشائه، ويترك له ريشه كله، ويرش في جوفه ملحا وبهارا، وأحيانا بعض الاعشاب العطرة، ومرات بعض الحشو الآخر. ثم يحضر الصلصال المبلل قليلا بما يجعله طيعاً للقولبة والعجن، فيمسده بشكل رقاقة من سنتيمتر سماكة أو ثلاثة، يلف بها الطير جيدا حتى يتخذ ذلك شكل بيضة أو كرة، بحسب الحجم. وفي حجر، يشعل ناراً قوية لأنه بحاجة الى جمر كثير. وحين تشتد النار كثيرا، يدخل كرة ويكسرها، فيبقى الريش لاصقاً بالفخار، ويخرج الطير طرياً وطيب المذاق، كما مشوياً في فرن.

ولكن ماكان يعجب جمعة، خاصة، في طريقة الشوي هذه، أنه كان كل مرة يكسر كرة الصلصال ويرميها، فلا جلي ولا غسيل صحون ولاترتيب.

وكان من عادة روبنسن أن يسلق البيض في مياه تغلي، لمدة تتراوح بين جعله نمبرشتاً أو رخصاً أو مسلوقاً. وكان جمعة علمه الاستغناء عن القدر والماء، بثقب البيضة عن الطرفين بقضيب رفيع، مما يشكل إسفيناً يقلبه فوق النار.

وطالما اعتقد روبنسن بأن الطاهي الماهر لايخلط اللحم والسمك، ولا الملح والسكر. لكن جمعة برهن له إمكان ذلك وطيب مذاقه. فقبل دهي شريحة من اللحم، كان براس السكين يخرق فيها عدة ثقوب، وفي كل ثقب يدس محارة أو بلحة بحرٍ (نوع من الصدف) نيئه، مما يجعل للشريحة ـ محشوةً بالأصداف ـ مذاقا شهيا.

أما خلط المالح والسكري، فكان يزنر السمكة بطبقة من الأناناس، أو يحشو أرنبا بالخوخ. والأهم، أنه علم روبنسن كيف يصنع السكر: أرشده الى نخلة منتفخة في وسط الجذع أكثر من أسفله وأعلاه. عند قطعها أو تجريدها من سعفها، تتقطر منها قطرات نسغٍ سميكٍ لزجٍ سكري المذاق. ومن الافضل ان تتعرض النخلة للشمس، وأن تكون قمتها (من حيث يتقطر النسغ) أعلى من أسفلها، وهذا طبيعي لأن النسغ يجري صعدا في جذع الشجرة وقد يستمر النسغ يتقطر اشهرا شرط تبريد الشق باستمرار لان المسام التي يدفق منها السكر مرشحة للتكسير.

كما برهن جمعة لروبنسن أن تعريض هذه المادة

للنار يجعلها كحلول السكر المحروق، يدخل فيه حبوب فاكهة يطهيها على الاسفين، ومراتٍ يدخل فيه قطعاً من اللحم، وأحياناً بعض السمك.

٢٣

رغم كل هذا التوافق، أول شجار حصل بين روبنسن وجمعة، كان بسبب وجبة طعام. فقبل الانفجار لم يكن ممكناً حصول الشجار لأن روبنسن كان السيد وما كان على جمعــة الا الطاعة. كان بامكان روبنسن أن يؤنب جمعــة أو حتى يضربــه. أمــا الآن، فجمعة بات حراً، ومساوياً روبنسن، ويمكن أن يتشاجرا.

وهو هذا ماحصل حين حضر جمعة، في محارة كبيرة، كمية شرائح مستديرة من لحم الثعابين، مع توابل من الجراد. وكان قبلها بأيام يزهق روبنسن ويثير أعصابه بتصرفاته. وليس أخطر من الازهاق في الحياة بين اثنين. وكان روبنسن، عشية ذاك اليوم، أصيب بعسر هضمٍ بعدما أكل فتيلة سلحفاة بالقمامات. وإذا يومها يأتيه

جمعة بتلك المحارة المقرفة من الحشرات والثعابين. طفح الغيظ في صدره فرفس المحارة فتدحرجت على الرمل. استدار جمعة فالتقطها ولوح بها فوق رأس روبنسن.

هل سيشتبك الصديقان؟ كلا. فجمعة فعل هذا و... هرب.

بعد ساعتين، رآه روبنسن يعود جاراً وراءه نوعاً من نصب دمية، رأسه من جوزة هند، ويداه ورجلاه من قضبان الخيزران، يرتدي ثياباً لروبنسن عتيقة، كأنه فزاعة عصافير. وعلى جوزة الهند المعتمرة قبعة بحار، كان جمعة رسم وجه صديقه. وجاء بالنصب/ الدمية وشكه أمام روبنسن قائلا له:

- أقدم لك روبنسن كروزو، حاكم جزيرة سبيرانزا.

ثم التقط المحارة الفارغة والوسخة، وزمجر وهو يكسرها على جوزة الهند، فانهارت بين قضبان الخيزران المكسرة. وانفجر جمعة في ضحكة طويلة، وتقدم فقبل صديقه.

فهم روبنسن مغزى هذا التهريج. وذات يوم، رأى روبنسن جمعة يأكل دود نخل كبيراً حياً ممزوجاً ببيض

النمل. فأشاح وذهب الى الشاطئ. وبالرمل المبل، صنع تمثالاً منبطحاً على بطنه، لرأسه شعر من الطحالب، ووجهه مخبأ في كف احدى الراحتين، وجسمه برونزي عارٍ كجسم جمعة. وما كاد روبنسن ينتهي من صنيعته حتى وصل جمعة اليه، في فمه مضغة من دود النخل. فبادره روبنسن:

- أقدم لك جمعة آكل الدود والثعابين.

ثم التقط غصن بندق عراة من فروعه وأوراقه، وأخذ يجلد ظهر التمثال الرملي وساقيه. ومن يومها، بات على الجزيرة أربعة: روبنسن الحقيقي وروبنسن النصب / الدمية، وجمعة الحقيقي وجمعة التمثال الرملي. وكلما كان أحد الصديقين يريد أن ينتقم من الآخر، بالضرب أو اللكم، أو الصراخ، يفعل ذلك بالنصب أو التمثال.

أما بينهما معاً، فلم يكن الا التوافق والتفاهم.



٢٤

لم يطل الأمر بجمعة، حتى توصل الى اختراع لعبة جديدة أكثر طرافةً وإثارة من تلك. فبعد ظهر ذات يوم، أيقظ فجأة روبنسن من قيلولته تحت يوكاليبتوس (نوع أشجار للأحراج والتزيين يُزرَع عادة في المناطق الحارة)، واذا به متنكر بما أشكل على روبنسن فهمه سريعا. كان ضاماً ساقيه في خرقة بشكل سروال، على كتفيه سترة، وعلى رأسه قبعة قش لم تعفه من التظلل تحت خيمة نخل، وعلى ذقنه لحية كثيفة من القطن. وقف بكل مهابة أمام روبنسن وسأله بجلال:

- أتعرف، ياهذا، من أنا؟

- كلا.

- أنا روبنسن كروزو من مدينة يورك في انكلترا. أنا

سيد جمعة الخادم البري. فسأل روبنسن رفيقة مذهولا:

ـ إذاً، أنا... من أكون؟

ـ إحزر.

كان روبنسن يعرف جمعة جيداً، فحزر ولم يجب، بل نهض وغاب في الغابة.

إذا كان جمعة بات روبنسن كروزو ـ روبنسن الأمس، سيد جمعة الخادم ـ يعني: بات على روبنسن أن يصير جمعة. وبالفعل، كان لم يعد له، كما قبل الانفجار، تلك اللحية المهندمة وذاك الشعر القصير، بل بات فعلا يشبه جمعة بما لم يعد له كثير عناء ليقوم بدوره.

اكتفى بفرك وجهه وجسمه بعصير الجوز فاسمر، وعلق حول خصره جلد الآروكانيين كالذي كان يزنر خصر جمعة يوم نزل في الجزيرة. ثم عاد وقدم نفسه لجمعة:

ـ ها أنذا جمعة.

فراح جمعة يجهد في استعمال عبارات طويلة بأفضل إنكليزيته، وروبنسن يجيبه ببعض الكلمات الآروكانية

التي مايزال يحفظها منذ كان جمعة لايعرف الانكليزية بعد. قال جمعة:

- أنا أنقذتك من أبناء عشيرتك وكانوا يريدون قتلك.

فخر روبنسن راكعاً، وأحنى رأسه حتى التراب، وهو يردد كلمات الشكر، ثم أخذ قدم جمعة ووضعها على عنقه.

قاما غير مرة بهذه اللعبة، ودائما على إشارة من جمعة. ففورما يظهر باللحية تحت المظلة، يفهم روبنسن أن أمامه روبنسن وأن عليه القيام فوراً بدور جمعة. ولم يكونا يقومان بمشاهد مبتكرة أو مرتجلة، بل بكل مامرا به في حياتهما الثنائية، حينما كان جمعة عبدا خائفا، وروبنسن سيداً فظاً. كانا يعيدان تمثيل مشاهد الصبار المزين، وحقل الأرز المجفف والغليون المدجن سراً في المغارة قرب براميل البارود. ولم يكن يعجب جمعة أكثر من مشهد البداية، يوم هرب الآروكانيين وأنقذه روبنسن.

فهم روبنسن أن استعادة هذا المشهد تفيد جمعة إذ

تشفيه من الذكرى السيئة بأنه كان عبداً. وفهم كذلك أنها تفيده هو أيضاً، إذ كان يشعر بندمٍ أنه كان لجمعة سيداً فظاً.





٢٥

ذات يوم، عاد جمعة من نزهة، وعل كتفه برميل صغير وجده قرب القلعة فيما كان يحفر في الرمل لالتقاط عظاية.

فكر روبنسن طويلاً، فتذكر أنه كان خبأ برميلين من البارود يصلهما بالقلعة حبلُ كتان يتيح له تفجيرهما عن مسافة. انفجر أحدهما يوم الكارثة الكبرى، وها هو الآخر وجده جمعة، واستغرب روبنسن فرح جمعة بلقيته، فسأله:

ـ وماذا سنفعل بهذا البارود، ولم يعد لدينا بندقية نحشوها به؟

لم يجب جمعة، بل أدخل رأس سكينة في غطاء البرميل وفتحه. ثم أدخل فيه يده وسحب منه حفنة بارود ملْ كفه ورماها في النار. تراجع روبنسن خوف انفجارها،

فلم تنفجر بل هبت شعلة خضراء نشبت بسرعة وانطفأت بسرعة. فشرح جمعة:

- أرأيت ؟ البندقية أقل الوسائل جمالا لاحراق البارود، لأن هذا، محشوراً في نبدقية، يصرخ ويصبح مؤذياً، بينما متروكاً لحريته، يشتعل صامتاً ويصبح جميلاً.

ثم دعا روبنسن الى أن يرمي بدوره حفنة بارود في النار، وقفز هو في الهواء تماماً مع الشعلة كما ليرقص معها.

عاودا ذلك غير مرة، مع هذا الستار الجميل من النار الخضراء المتطايرة، وعلى كلٍ منهما بدا ظل جمعة في وضع مختلف.

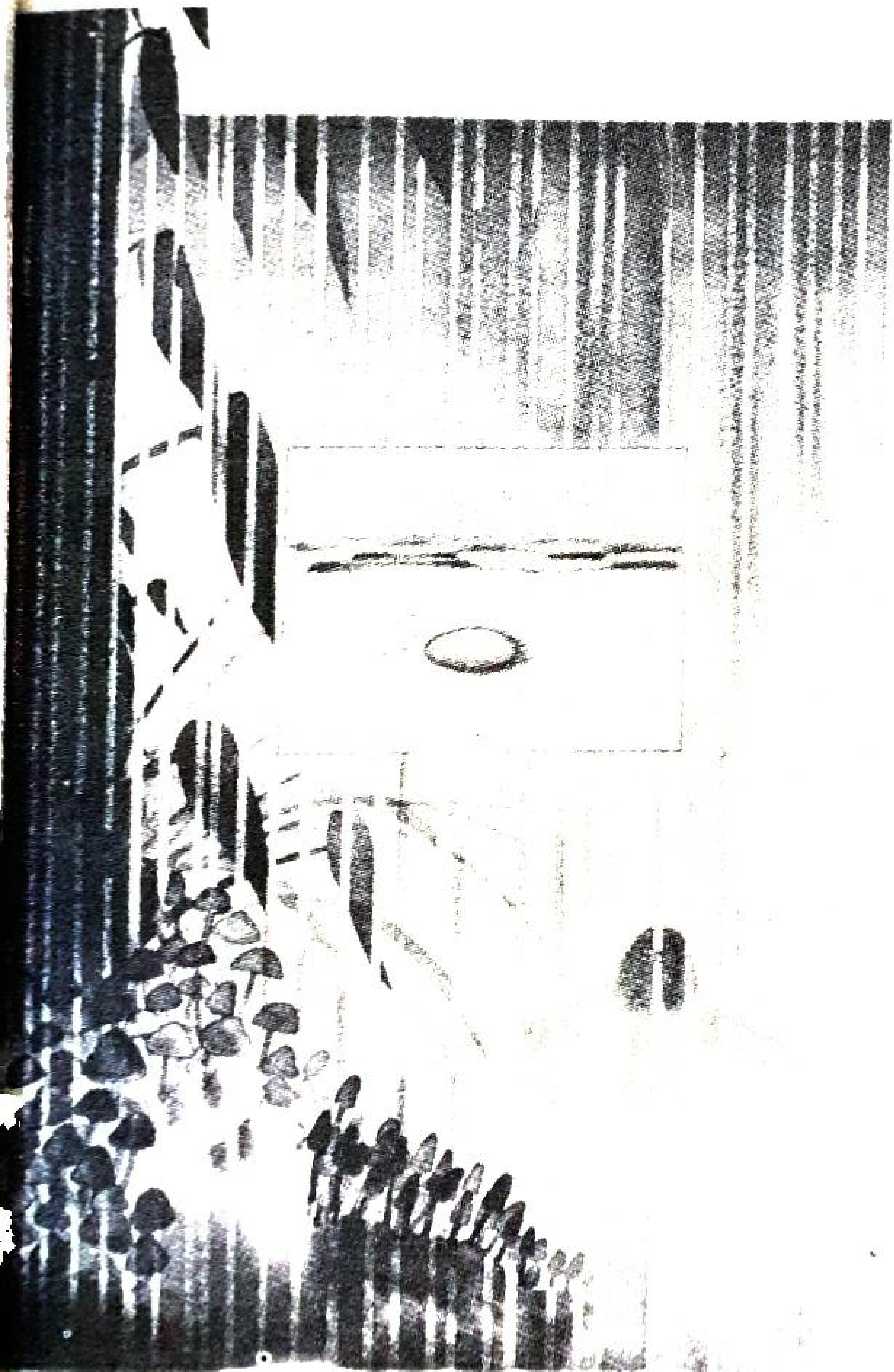
لاحقاً، اخترعا طريقة أخرى للعب بالبارود. جمعا راتنج الصنوبر (مادة صمغية لزجة قابلة للاشتعال سريعاً، تفرزها بعض النباتات والأشجار لاسيما الصنوبر) وخلطاه في وعاء صغير مع البارود، فتكونت لديهم عجينة سوداء لاصقة رهيبة الاشتعال، غلفا بها الجذع والأغصان لشجرةٍ يابسةٍ ماتزال واقفة على طرف الجرف الصخري.

ومع الليل، أضرما النار فيها، فاكتست الشجرة قشرة ذهبيــة مبـرقعــة، وبقيت تشتعــل حتى الصبــاح كما شمعدان ذهبي كبير.

عندئذٍ، أمضيا عدة أيام في تحويل البارود كله الى عجينة نار، غلفا بها جميع الشجرات اليابسة في الجزيرة.

ومــع الليــل، كلما شعرا بالضجر والأرق، يشعلان شجرة يابسة، ويكون إضرامها عيداً لهما جميلاً.









طوال السنوات التي سبقت الانفجار وتدمير الجزيرة المتحضرة، جهد روبنسن في تعليم جمعة الانكليزية بطريقة سهلة. كان يقدم له زهرة، ويقول له: «زهرة»، فيردد جمعة: «زهرة». ويصحح له جمعة لفظة عند اللزوم. ثم يريه جدياً فسكيناً فشعاع شمس فجبنةً فمجهراً فنبع ماء، وهو يلفظ بتؤدة: جدي، سكين، شمس، جبنة، مجهر، نبع. ويردد بعده جمعة مرات، حتى تستقيم الكلمة بين شفتيه.

ولكن، بعد حصول الكارثة، كان جمعة تعلم كافياً من اللغة مايجعله يفهم أوامر روبنسن ويسمي الأدوات اللازمة المحيطة بهما. وذات يوم، أشار جمعة الى بقعة بيضاء تتحرك على العشب، وقال لروبنسن:

ـ زهرة.

فأجاب روبنسن:

ـنعم، هذه زهرة.

ولم يكد روبنسن ينتهي من لفظ الكلمة حتى لوحت «الزهرة» بجناحيها وطارت.

فاستدرك روبنسن:

ـ أرايت؟ لقد أخطأنا. لم تكن هذه زهرة بل فراشة.

ـ فراشة بيضاء... زهرة تطير.

قبل الكارثة، وروبنسن سيد جمعة والجزيرة، كان يمكن أن يغضب لجوابٍ كهذا. ولكان أرغم جمعة على التحديد: «الزهرة زهرة، والفراشة فراشة، ولاخلط بينهما». لكنه، يومها، لزم الصمت ولم يعلق، بل أخذ يفكر.

ذات يوم، لاحقاً، وكانا يتنزهان باكراً على الشاطئ والسماء زرقاء صافية حتى لايزال قرص القمر ظاهراً في الغرب، انحنى جمعة يلتقط بعض الأصداف، فدل روبنسن على حصاة مستديرة تشكل نقطة بيضاء مستديرة على الرمل النظيف. فرفع يده صوب القمر، وقال

لروبنسن:
- إسمع: هل القمر حصاة السماء المستديرة، أم ان هذه الحصاة المستديرة هي قمر الرمل؟

وانفجر ضاحكاً، كما لو انه حدس سلفاً بأن روبنسن لن يتمكن من الاجابة عن هذا السؤال. ثم ادلهمت السماء، وتكاثفت الغيوم السود فوق الجزيرة، وأخذ المطر ينهمر غزيراً على ورق الشجر، محدثاً آلاف من نباتات الفطر على صفحة مياه البحر، واندفعت السيول على الصخور.

احتمى روبنسن وجمعة تحت شجرة. وفجأة، خرج جمعة تحت المطر، قلب وجهه الى الوراء تاركاً المياه تسقسق على خديه، ثم اقترب من روبنسن قائلاً:
- أنظر. الطبيعة حزينة وهي تبكي: الشجر يبكي، الصخور تبكي، الغيوم تبكي، وأنا معها أبكي. المطر... هو حزن الجزيرة وحزن الطبيعة كلها.

بدأ روبنسن يفهم، ويعي أن الظواهر المتباعدة (مثل: القمر والحصاة المستديرة، أو الدموع والمطر) قد تتقارب حتى الامتزاج، وأن الكلمات تطير من ظاهرة الى أخرى،

ولو كانت تخلق تشويشاً في الافكار.

لذلك، دخـل اللعبة فوراً حين شرح له جمعة قواعد «صورة آروكان في خمس لمسات فقط»، فبات يقول له مثلاً:

ـ أمك تهددك، الطاهي يملح الحساء، فيلق جنود يأخذ أسيراً، حيوان ضخم يثور ضارباً بقوائمه الأرض حين تهـب الزوابـع، جلد حيـة ذو ألف قشرة تتـلألأ في الشمس... ماهو؟

فيجيب روبنسن منشرحاً لصحة جوابه:

ـ المحيط.

ولكي يُثبت أنه فهم قواعد اللعبة، وجه بدوره السؤال الى جمعة:

ـ جزة هائلة من الصـوف يختبئ فيهـا رجلان يبدوان بحـجم برغـوثـين، حاجب يتغضن فوق عين البحـر الواسعـة، بقعـة خضراء صغـيرة وسـط مساحة كبيرة زرقاء،قليل من الماء العذب في كثير من الماء المالح، سفينة لاتتحرك لأنها مشدودة أبداً الى الياطر (المرساة). ماهي؟

ـ إنها جزيرتنا «سبيرانزا».

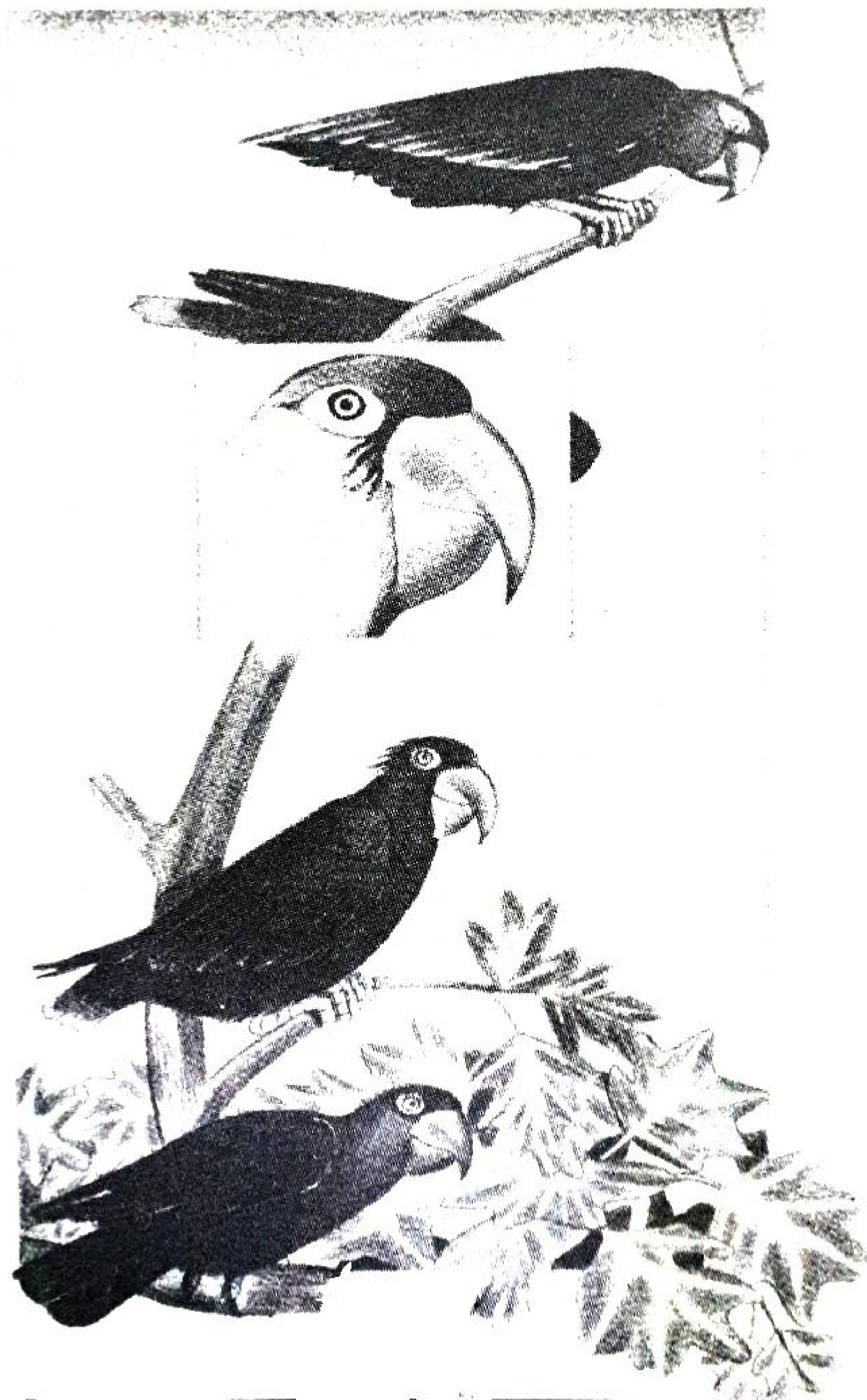
وضحك جمعة صارخاً لمعرفته الجواب الصحيح، ثم وجه الى روبنسن أحجية أخرى:

- لو انه شجرة، لكان نخلة بسبب كثافة شعره الاصهب على جذعه، ولو انه طير، لكان غراب المحيط الهادئ بسبب صوته الأجش النابح، ولو انه جزء من جسمي، لكان يدي اليسرى بسبب إخلاصها في اعانة يدي اليمنى، ولو انه سمكة، لكان الزنجور التشيلي (جنس أسماك نهرية مستطيلة الشكل واسعة الشدق من فصيلة الزنجوريات) بسبب أنيابه المسننة. ولو انه ثمرة، لكان جوزتين بسبب عينيه الصغيرتين البنيتين. فما هو إذاً؟

- انه... «تن» كلبنا الأمين. عرفته عن مواصفات الشعر الأصهب والنباح والاخلاص والانياب المسنونة والعينين الجوزيتين.

وعند ذكر «تن» الغائب، شعر روبنسن بحزن كبير يغمره، وكرة هواء تنتفخ في حلقة تمنعه من الكلام.

تنبه جمعة الى ذلك، وندم على خطإه في هذا التذكير المحزن.





٣٧

ذات صباح، استيقظ جمعة على صوت روبنسن يناديه باسمه. نهض جالساً حوله: لم يجد أحداً. مع انه لم يكن يحلم. فجأة، فوق رأسه تماماً، وبين أغصان الشجرة التي ينام تحتها، عاد النداء مجدداً:

- جمعة... جمعة...

هب واقفاً، وتفحص أوراق الشجرة، فوجد طيراً أخضر ورمادياً يخفق بجناحيه ويطير في صوت هازئ باتجاه الغابة حيث كان يجلس هو وروبنسن عادةً. أراد التحقق مما رأى، فتوجّه الى هناك ولم يبحث طويلاً: إحدى أجمل الأشجار - شجرة الزنبق - بدت مثقلة بثمار كبيرة غريبة، لم يلبث أن تحقق من أنها أعشاش ببغاوات.

بعد الظهر، عاد الى هناك، ومعه روبنسن. كانت البغاوات تثير قوقأة كبيرة بين أغصان شجرة الزنبق، لكنها سكتت لدى اقتراب الرجلين اللذين، هما أيضاً، لزما الصمت حين بلغا أسفل الشجرة. استغرب روبنسن:

ـ لم أجد ببغاء واحدة طوال إقامتي على هذه الجزيرة. يبدو أنها وصلت معاً لتبيض هنا، ولابد أنها أتت من جزيرة أخرى غير بعيدة.

فتح جمعة فاه ليجيب، فأخرسته قوقأة الببغاوات التي أخذت تقوقئ جميعها في وقت واحد، انما تبين من قوقأتها ترديد هذه العبارات تنتقل من ببغاء لأخرى:

ـ لم أجد... لم أجد... لم أجد...

ـ جزيرة أخرى... جزيرة أخرى... جزيرة أخرى...

ـ وصلت معاً... وصلت معاً... وصلت معاً...

وأخذ جمع ببغاوات خضراء على غصن مقابل يردد:

ـ غير بعيدة... غير بعيدة ... غير بعيدة...

عند هذا الهدير الطاغي، هرب روبنسن وجمعة حتى آخر الصنوبر عند أطراف الشاطئ وتذكر روبنسن

سنوات وحدته الطويلة، فتنهد:

ـهذه أول مرة منذ وجودي على هذه الجزيرة، يزعجني ضجيج أصوات.

فنفر صوت حاد من صنوبرة قريبة:

ـ ضجيج أصوات... ضجيج أصوات... ضجيج أصوات.

إذاً: يجب الهرب الى أبعد، حتى البحر، حيث يفقش الموج على الرمل.

بعدها، بات يصعب على روبنسن وجمعة تبادل أي حوار بدون أن يردد بعض تعابيرها صوت نشاز ساخر، طالع من شجرة قريبة أو من دغل. لذلك، من شدة الغيظ، لم يعد روبنسن يتنقل إلا وفي يده قضيب طويل يرميه من جهة الصوت. لم يصب ولا ببغاء، لكنه كان يراها تطير هاربة بقوقأةٍ تشبه الضحكة الهازئة.

ذات يوم، لاحقاً، قال جمعة:

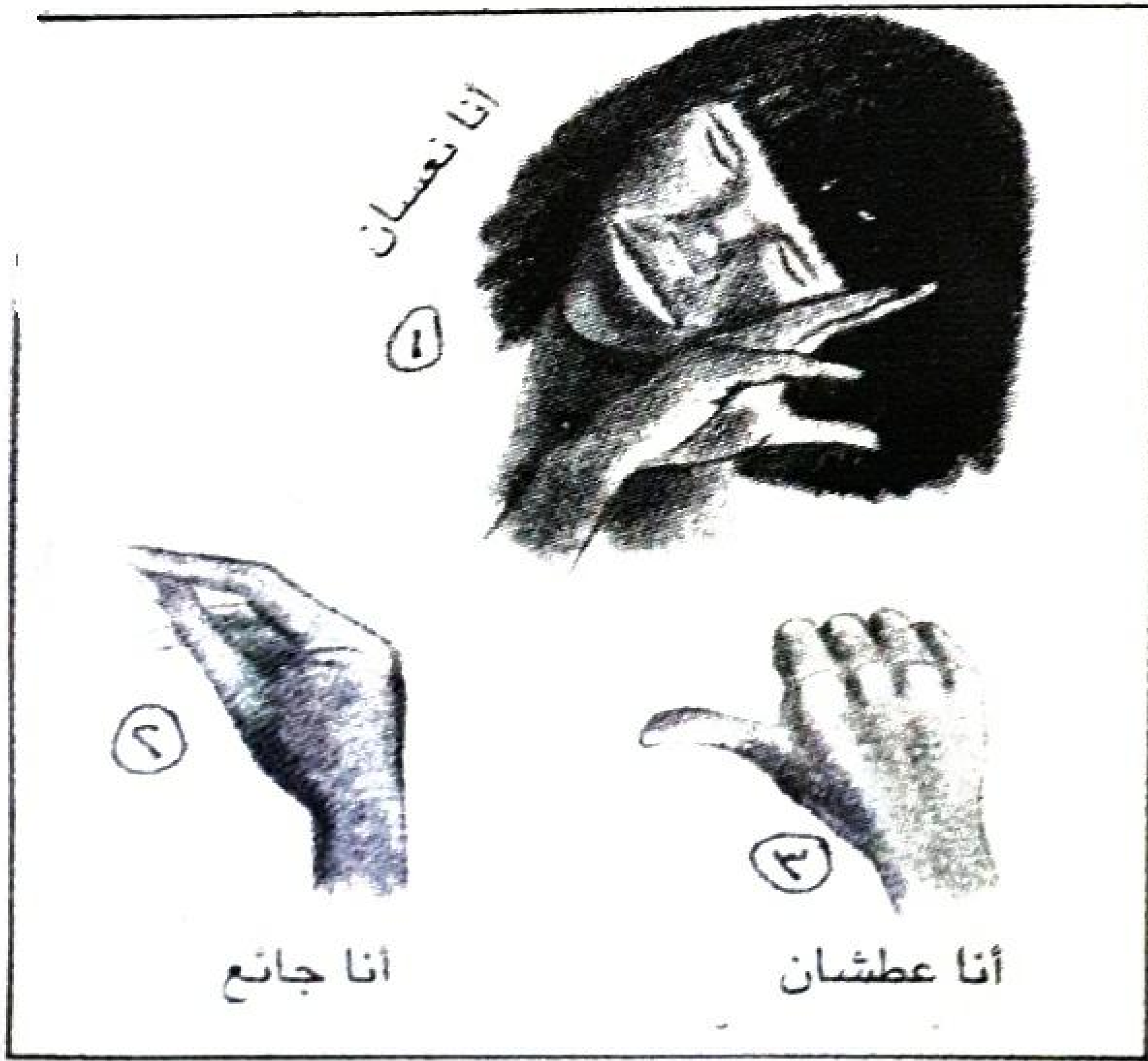
ـ تعرف؟ أعتقد أن هذه أمثولة لنا. إننا نتكلم كثيراً. يجب أن نعرف كيف نسكت. في قبيلتي، من مبادئنا الآروكانية أن الحكيم أكثر هو الذي يتكلم أقل. والكثير الكلام قليل

الاحترام. من هنا أن أكثر ثرثرة هي القردة، وأكثر البشر ثرثرة هم الاولاد والنساء العجوزات.

فردد صوت ساخر فوقه:

ـ الأولاد... الأولاد... الأولاد...

عند هذا، أخذ يعلم روبنسن مجموعة من الحركات باليدين، تشير الى التعابير الحياتية الضرورية، وهي:



وهذه إشارات أخرى كان الصديقان يتفاهمان بها في صمت:



وهكذا، كان جمعة وروبنسن، بهذه الطريقة، يظلان صامتين أسابيع كاملة. وذات صباح، وكانت فقست جميع بيضات الببغاوات، وبدأت صغارها بالطيران، هب على الشاطئ ضجيج قوقأة هائل، وفجأة، مع شعاع الشمس الأول، طارت الببغاوات رفاً واحداً فوق البحر، فبدت في الأفق غيمة كثيفة مستديرة خضراء كما تفاحة.

عندها، عاد جمعة وروبنسن الى التخاطب شفاهة، سعيدين باستعادة سماع صوتيهما. وكانت هذه تجربة مفيدة لهما وصحية، حتى أنهما، غالباً وبالاتفاق الثنائي، يروحان يتخاطبان، صامتين، بالاشارات الاصطلاحية.



٢٨

كانت الغنزات التي دجنها روبنسن وآواها في أماكن مسيجة، قد عادت الى حالتها البرية البدائية. وكما أكثر الحيوانات المعتادة أن تعيش في وساعة الحرية، تنظمت تلك العنـزات في جماعات تقودها الفحول الأكثر حكمة وقوة، وهذه يسوسها بدوره الفحل/الملك، وهو ذو جسم هائل وقوة رهيبة، وكان يدعى «آندورا».

وكلمـا هدد خطر قطيعاً، يتجمع (إجمالاً على تلة أو صخرة) تتصدر في الصف الأول التيوس (الفحول) تنيخ برؤوسها فتجعل أمام العدو سداً من القرون يستحيل عبوره.

تخيـل جمعة لعبة خطرة يحبها: كان عادةً يصارع الفحول التي يفاجئها منفردة. إذا هربت يطاردها حتى

يقبض عليهـا فيمسك بقرونها ويرغمها على الانبطاح. ولكي يسم الفحول التي انتصر عليها هكذا، كان يعقد حول أعناقها أطواقاً من أعناق النباتات الطويلة.

والذي حصل: خلال إحدى مطارداته، التقط جمعة عنـزة وجدها جريحة في جحر أحد الصخور، مكسورة القائمة الأمامية. كانت صغيرة بيضاء ولاقرون لها بعد. فصنع لها جمعة جبائر من عيدانٍ حزمها حول عظمها المكسـور. طبعـاً، لو كانت أكبـر سناً أي أكثر حكمة، لارتضيت بهذا التجبير الذي يعيقها عن طي ركبتها. لكن العنزة الصغيرة آنذاً ـ كما سماها جمعة ـ لم تستطع البقـاء في مكـانهـا ، وأخذت تقفز كالمجنونة وتقع على جبيرتها فتجن من الألم أكثر. ثم تضرب قدمها بالأرض حتى تتخلص من جبـائرها،فتروح تتدحرج على جنبها وهي تطلق صرخات مؤثرة.

كان روبنسن موافقـاً على قتلها. ففي جميع بلدان العالم، يجوز قتل عنزة أو خروف أو حتى حصان اذا وجد أحد أعضائه مكسوراً، لأن هذه الحيوانات لايمكنها احتمـال تجبـير الجبس ولا الجبـائر التي تعيد العظم

المكسور الى مكانه.

لكن جمعة أصر على إنقاذ آنذا. فطالما لايمكنها الجري ولا الركض ولا القفز، سيجمدها تماماً. لذا، حزمها في إطار خشبي على الأرض. في البداية، وهي نائمة على جنبها، كانت تخبط بقوائمها وتثغو بما ينفطر له القلب. لكنها اعتادت وبدأت تأكل العشب العطر وتشرب الماء البارد مما كان جمعة يحمل إليها مرتين يومياً.

بعد ثلاثة أسابيع، حررها جمعة. حاولت الانطلاق قفزاً، فاذا بعضلاتها متجمدة. راحت تترنح كما لو شربت خمراً، ووجب تعليمها الجري من جديد، فتولى جمعة ذلك بصبر عجيب. بعد فترة، توصلت الى إمكان الركض من جديد، والقفز من صخرة الى صخرة، وراء جمعة مرةً، ومرة أمامه، حتى كان صعباً عليه اللحاق بها أحياناً.

سوى أنها، وإن عادت تماماً الى الجري والقفز، لم تعد تقبل أن ترعى لوحدها. وحتى لو تركت وسط حقل مليْ بالعشب والزهر وورق الشجر الطري - لأن العنزات تفضل ورق الشجر على العشب - كانت تثغو باتجاه جمعة، وتنتظر أن يجيْ ويطعمها من يده النباتات التي

يكون قد قطفها لها.

وبات جمعة وآندا لاينفصلان. ليلاً، كان جمعة يلتحف فروة آندا الدافئة إذ تتمدد عليه. ونهاراً لاتتركه خطوة واحدة. وكان يقول لروبنسن:

- سترى: لاحقاً، حين تمتلئ أثداؤها حليباً، لن أحلبها كما كما نفعل في الماضي، بل سأرضع منها مباشرة كأنها أمي.

كان يضحك لهذه الفكرة، وروبنسن يصغي اليه ببعض حسد، شاعراً بأنه مبعد من هذه الصداقة الحميمة التي تجمع جمعة وآندا. قال له مرة:

- منذ الكارثة، وأنت تريد أن يمسي كل كائن حراً على جزيرة سبيرانزا، والا يعود فيها حيوان داجن. فلماذا إذاً تأسر آندا دائماً معك؟

- آندا ليست حيواناً داجناً. إنها حرة. وهي تبقى معي لأنها تحبني. ويوم تريد أن تذهب، لن أمنعها. •

وفعلاً، ذات صباح، استيقظ جمعة وهو يشعر ان أمراً حدث خلال نومه: كانت آندا لا تزال ممدة عليه، إنما في عينها نظر غريب، واشتم حوله رائحة فحل قوية. لم

يبادر الى اي تصرف، لكنه بقي يفكر بالأمر طوال النهار.

في الليلة التالية، تعمد ألا يغفو. ومع منتصف الليل، أحس بحركة في الدغل الذي كان ينام على مدخله، فالتفت ورأى الدغل ينفتح كما زهرة كبيرة، ويطل منه رأس فحل لعله أجمل مارأى من رؤوس: عينان كبيرتان ذهبيتان تلمعان في كثافة الجزة، لحية ناعمة مسواة تتحرك في طرف الذقن، قرنان كبيران سود اوان على جبينه. وما هي حتى شعر جمعة بنفسٍ خفيف مع رائحة قوية من الوشل (مصالة الصوف) والمسك.

ومع أنه لم يره قط من قبل، عرف أن هذا هو آندورا ملك معزى سيبرانزا. ولكن آندا حتما رأته كذلك لانها تململت بين يدي جمعة كما لو انها أرادت التفلت من دون إيقاظه. لكنه ضمها إليه بشدة وحال دون انصرافها، الى أن انصرف الفحل الكبير. وهنا تذكر ما قاله لروبنسن من أنه لن يحتجز آندا إذا هي أرادت الذهاب. واحمر خجلاً تحت جلده الاسمر.

في اليوم التالي، وبكل تأنٍ، هيأ ربطات من أعناق النباتات ملونةً منوعة ليصنع منها طوقاً أقوى وأجمل مما

كان يصنع. إنه طوق الملك آندورا. ثم ذهب الى الجبل باحثاً عن غريمه.

رآه على قمـةِ صخـرة، جامـداً كتمثـال رهيب من الصوف. تسلق الصخرة بطيئاً، صاراً بين أسنانه القرط الملون الذي سيثبت انتصاره على غريمه. لم يكن مكان لاثنين على قمة الصخرة، ومع هذا لم يتحرك الفحل. حار جمعة: ماذا يفعل؟ هل يحرضه؟ هل يثيره؟ تقدم ممسكاً الطوق بطرف يده. وكاد يلمس الفحل، حين هب هذا متراً الى الامام وغرز قرنيه يميناً ويساراً في حزام جمعة الذي بات بين فكي كماشة. وأدار الفحل رأسه جانباً فاختل توازن جمعة ووقع من أعلى الصخر. من حسن حظه أنه لم يكن عالياً، إنما عند أسفله شوك كثير كشطة بعمق.

لزم جمعة أرجوحته أياماً، وروبنسن يعالجه بمحاجم من الطحـالب المبللة، فيما آندا تلحس له جراحه، وهو دائم الكلام على آندرو وتصميمه على الانتقام منه، بدون أن ينتقص من صفات ملك المعزى. كان يقول:

ـ يمكن التعرف على آندرو من مئة متر بفعل رائحته. وهو لايهرب عند الاقتراب منه. ثم لم يهاجمني بعد وقوعي

عن الصخرة ولاحاول القفز علي ليقتلني كما كان فعل أي فحل آخر.

كان جمعة ضعيفاً وهزيلاً، ويبقى ممدداً طوال الوقت، ألا عندما يجمع الاعشاب ويحمل الماء الى آندا. وذات مساء، وكان مرهقاً من التعب، غط في نوم عميق. وحين صحا صباح اليوم التالي، كانت آندا أختفت. فقال لروبنسن:

ـ أرايت؟ أرادت الذهاب فذهبت.

لكن روبنسن لم تنطل عليه الرواية. فأقسم جمعة في سره أن يجد آندورا ويضع له الطوق ويستعيد آندا.

حين شفي تماماً، حاول روبنسن أن ينهاه عن تحدي ملك المعزى: فثمة رائحة الفحول التي تلتصق على جلده، الى جانب أن اللعبة خطرة جداً. والدليل: وقوعه عن الصخرة وإصابته بالجراح. لكن نصائح روبنسن لم تنفع: كان جمعة يريد أن ينتقم، وهو من أجل ذلك مستعد لتحمل جميع الأخطار.

وذات صباح، جد صوب منطقة الصخور الكبيرة باحثاً عن غريمه. لم يطل بحثه كثيراً: كان وسط قطيع من

العنـزات والجداء، تفرقت جميعها لدى اقتراب جمعة. وحدها عنزة صغيرة بيضاء وفيه بقيت قرب الملك. عرفها جمعة: لأنها اندا. لم تكن ترعى العشب، بل آندورا يرعاه لهـا: يقتلع طاقة عشب ويقدمها لها فتتناولها بأنيابها وتهز برأسها مراراً كما للشكر. وشعر جمعة بالغيرة والحسد.

لم يحاول آندوار الهرب. كان في مكان يحده من جهة: جدار عالٍ من الصخور، ومن الأخرى: هوة يبلغ عمقها نحو ثلاثين متراً.

حل جمعـة الحبل حول معصمه، ورماه تحت أنف آندورا تحدياً، فتوقف هذا بحزم عن المضغ، تاركاً بين أنيابه عشبة واحدة طويلة. وأخذ يضحك هازئاً وهو يهز بلحيته، ثم انتصب على قائمتيه الخلفيتين كما للتباهي، وبهـذه الوضعية تقدم خطوات باتجاه جمعة ملوحا في الهواء بحافريه الاماميين وهازاً قرنيه الكبيرين كما ليحي جمهـور ماعـز جاء لتعـظيمـه. دهش جمعـة من هذه الايمـاءات الفظة، وبقي يفكر خلال لحظات ألهته عن

استعداده وتحفزه، فهبط الفحل الى الارض على خطوات منه واستعد لحظة للهجوم وانطلق كالسهم هاجماً على صدر الهندي. تنبه هذا، إنما متأخراً لحظة، فحاد جانباً إلا انه أصيب في كتفه اليمنى بصدمة قوية جعلته يدور على نفسه ويقع على الصخور بعنف ويبقى على الارض لحظات.

لو انه نهض فوراً، لكان تلقى لكلمة ثانية أقوى. لكنه ظل طريح الارض، لايرى من عينيه نصف المشقوقتين إلا قطعة من السماء الزرقاء.

ثم ادلهمت السماء فجأة، وغشى بصره رأس كثيف الشعر واللحية وخرير نفس ممزوج بهزء وتفٍ. حاول التحرك، لكن كتفه أحدثت له ألماً هائلاً جعله يغمى عليه.

حين فتح عينيه من جديد، كانت الشمس في قبة الجلد وتحرقه بحر شديد. استند الى يده اليسرى وحصل رجليه تحت جسمه. كان جدار الصخور يعكس عليه، كالمرآة، حر الطقس الشديد. تطلع فلم ير الفحل. نهض مترنحاً، وكان يهم بالاستدارة حين سمع وراءه وقع

حوافـر على الصخـور اقتـرب منـه حتى لم يسـع الى المواجهة بل انهار على جنبه الايسر حيث كتفه السليمة، واذا بلكمـة قويـة على خاصرته تجعله يترنح من جديد ويترنح مصلوب اليدين. توقف آندوار فغربه فجأة، على قوائمـه الاربـع القـاسيـة، فأضاع جمعة توازنه كلياً واستقر على ظهر الفحل. انحنى آندوار تحت ثقل الجسم ثم جمع قواه وانطلق يعدو بقفزات كبيرة.

كان جمعـة، من شدة ألم كتفـه، يتشبث من يديه بقـرني الفحـل، ومن رجليه بجنبيه. وكان الفحل يعدو ويقـوم بكـل مايجعله يتخلص من حفيف هذا الجسم العـاري الذي يرهقـه. دار مرات حول المكـان وفـوق الصخور بدون أن يترجح مرة واحدة. وكان جمعة من الألم بحيث شعر بحاجة الى التقيؤ، وخاف أن يغمى عليه من جديـد. كان ضرورياً أن يرغم آندوار على التوقف.

أنزل يديه عن قرني الفحل وسد بهما له عينيه ظناً منه أنه سيتوقف حين لن يعود يرى طريقة. سوى أنه، مع هذا، لم يتوقف، بل أكمل في خط مستقيم الى الامام كأن

لاحواجز أمامه، وحوافزه تضرب على الصخور التي تؤدي به الى الهوة. وظل يكمل صوبها حتى ترنحت قوائمه في الفراغ، واذا بالجسمين المتماسكين يسقطان في الفراغ.





٢٩

على مسافة كيلو مترين، كان روبنسن تابع، بالمنظار الطويل، صراع الخصمين وسقوطهما. كان يعرف تماماً تلك المنطقة من الجزيرة، ويعرف إمكان الارتقاء من قعر الهوة عن طريق ضيق يتأفعن حتى قمة الجبل.

مع المساء، اكتشف جثة آندوار وسط أعشاب هزيلة نابتة بين الصخور. سد أنفه، وانحنى على الجثة الهائلة السمراء فتبين الطوق الذي عقده جمعة في عنق الفحل.

وهم بالوقوف، ففاجأته ضحكة جمعة واقفاً وراءه، مغطى بالخدوش مخلوع الكتف، لكنه بدا سعيداً بانتصاره.

كانت آندا الى جانبه تلحس له يده. فقال لروبنسن:

ـ ملك المعزى كان تحتي، وحماني حين سقطنا. صحيح أنه مات، فأنقذني، لكنني سريعاً سأجعله يطير ويغني.





٣٠

شفي جمعـة من إرهـاقـه وجـراحه، بسرعة عجيبة أذهلت روبنسن. وبعـد أيام عاد الى جثة آندوار. قطع رأسه ووضعه وسط جماعة من النمل. ثم جز له جلده حول قوائمـه وعلى طول صدره وبطنه، وسلخ له جلده ومـدده على الأرض. لم يحفـظ من الجثة المبقورة غير الامعـاء التي غسلها بالماء الكثير ونشرها على أغصان شجـرة. ثم توجـه الى الشاطئ وهو يرندح حاملاً جلد الفحل الثقيل والكبير. غسله جيداً بين الامواج ليتشرب رملاً وملحاً. ثم حكة بالأصداف لينزع عنه الوبر والصوف.

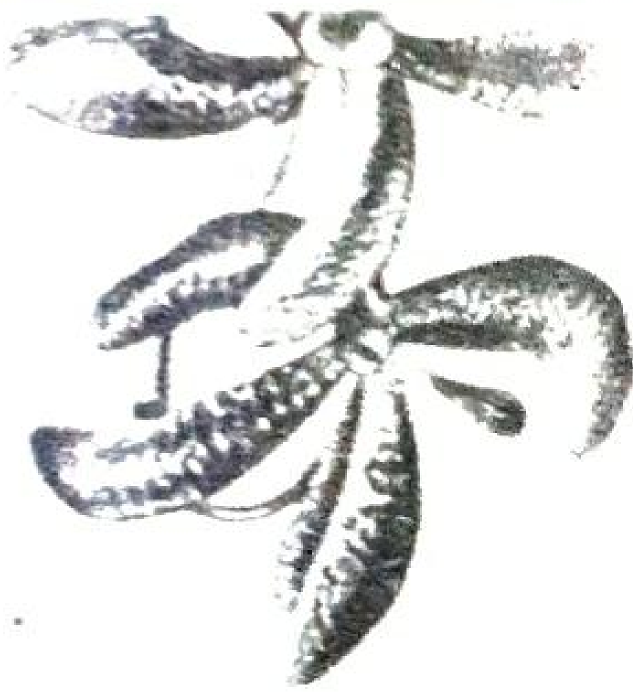
هذا العمل كلفه أياماً عديدة، انتهى معها الى تمديد الجلد على قوسين من خشب، شداه كجلد طبل مشدود.

وحين جف تماماً، لمعه بحجر خفان (نوع من حجارة خفيفة نخرة توجد عند مرمى الموج)، وأخذ يردد:

ـآندوار سيطير... آندوار سيطير...

وظل متكئاً على ختام مشروعه.





٣١

منذ طفولته الاولى، كان روبنسن يتعرض غالباً للدوار. كان يكفي صعوده الى كرسي، كي يصاب بادوار ويقع. وذات يوم، أراد الصعود حتى جرس كاتدرائية مدينته يورك. وبعد ارتقاء درجها الطويل العالي الضيق الحلزوني (اللولبي) وجد نفسه فجأة في العراء، بدون جدران تحميه، على سطيح صغير في الفضاء الطلق، فأمكنه أن يرى، من فوق، المدينة كلها وسكانها بحجم النمل. ذعر وصرخ من الخوف، فاستوجب إنزاله معلباً كرزمة، رأسه ملفوف بمريول مدرسته.

وكان يومياً يحاول أن يتسلق شجرة ليتعود ويخشوشن. كان في الماضي يجد هذا التمرين سخيفاً وبلا جدوى. ومنذ راح يعيش محتذياً جمعة، قرر أن من

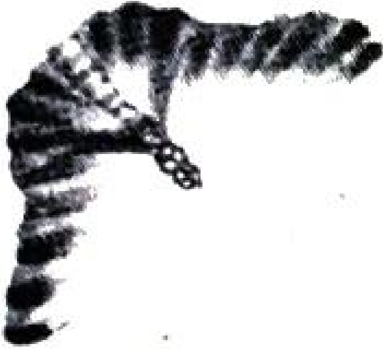
الضروري التخلص من ذاك الدوار الرهيب.

لهذا، ذات صباح، اختار شجرة آروكايا، احدى أكبر شجـرات الجزيرة، فأمسكها بأسفل أغصانها وصعدا على ركبتـه. أخـذ يرتقي عاليـاً ممنناً نفسه باستقبال الشمس باكراً أكثر، إذ سيكون على أعلى الشجرة. وكلما ارتقى صُعـوداً، كان يشعـر بالشجرة تهتز وتترجح في الريح. وبدأ الدوار يقبض له معدته.

فجأة، وجد نفسه في القمة، معلقاً في الفراغ على علو متـرين. وهنـا ارتكب خطأ نادراً مايمكن تلافيـه عنـد الخـوف من الدوار: تطلع الى قدميـه. لم ير الا كومـة أغصان تغوص الى أسفل وهي تدور لولبياً. جمده القلق فشد على الجذ ع بيديه ورجليه، وتنبه الى ضرورة أن ينظر لا الى تحت بل الى فوق، ففعل.

وإذ رفع عينيه، وجد في السماء الصافية الزرقاء طيرا ذهبياً كبيراً بشكل معين، يرفرف وسع الفضاء.

هاهو جمعة نفذ وعده السري، و... طير آندوار.



٣٢

كان جمعــة أخـذ ثلاثة قضبان من الأسل (جنس نبــاتــات عشبيــة تستعمــل أغصانها لصنع السلال) وربطها متصالبة، وغرز في كل قضيب فتحتةً مرر فيها معياً. وعلى هذه القاعدة الخفيفة والمتينة معاً، مدد جلد آنــدوار خائطاً أطرافه على أطراف الامعاء . وكان طرفا القضيب الاطول مجموعين رخوٍ ربط به طيارته في نقطة دقيقة المسافة لان عليها يتوقف انحناء الطيارة مع الريح.

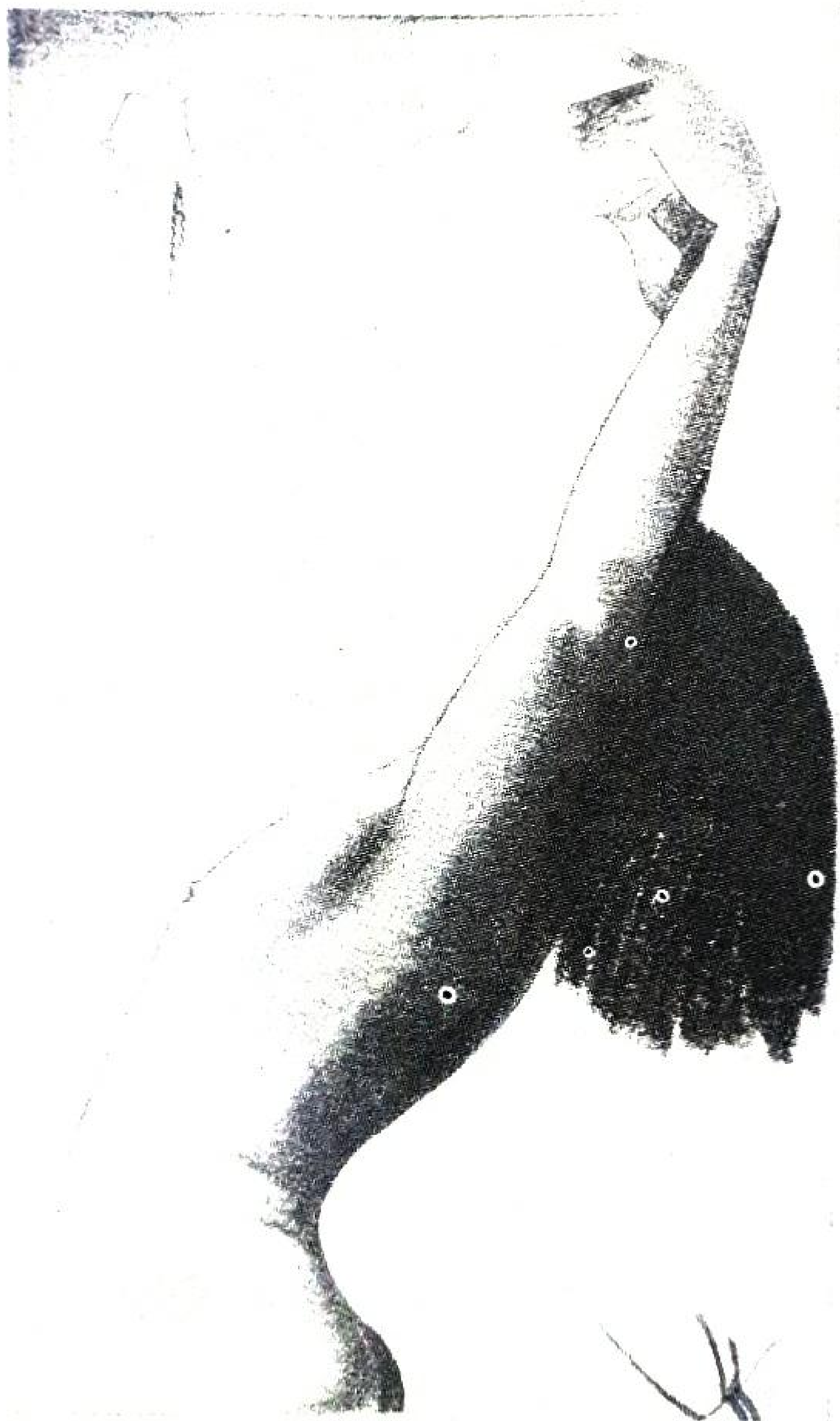
كان جمعة يشتغل بطيارته منذ أشعة الفجر الاولى، ثم أطلق عصفوره الجلدي ملوحاً في الهواء بين يديه كما لو ان صبــره نفــذ ويريد أن يحلق بسرعةٍ عالياً. وعلى الشــاطئ صرخ جمعة من الفرح في حين نشب آندوار

كالسهم حاملاً معه كتلة من الريش الابيض والاسود.

نزل روبنسن عن الشجـرة سريعاً، ليلتحق بجمعة، فوجـده ممداً على الرمل، يداه تحت رقبته وآندا مكومة عنـد قدميـه، وحبل الطيارة معقود الى عرقوبه (عصب غليظ فوق عقب القدم). تمدد روبنسن الى جانب جمعة وأخـذا معـا يتـأملان طيران آندوار بين الغيوم يصعد ويهبط ويترنح ويسقط مع جمود الهواء ثم يعلو مع عودة نسماته.

فجأة، هب جمعة واقفاً على رجليه، وبدون أن يفلت الحبل من عرقوبه، راح يقلد رقص آندوار في الريح، وهو يضحك ويغني، ثم تكوم على الارض وهب رافعاً يديه، ثم انحنى ورفـع ساقـه الأيسر صوب الفضاء ودار، تدور حولا آنـدا. وفي العـالي، بعيداً بين الغيوم، ذاك الطير الذهبي الجميل المعلق بخيط من ثلاثمئة متر الى عرقوب الهندي، يرافق برقصه وطيرانه وسقوطه وقفزاته وترنحاته.

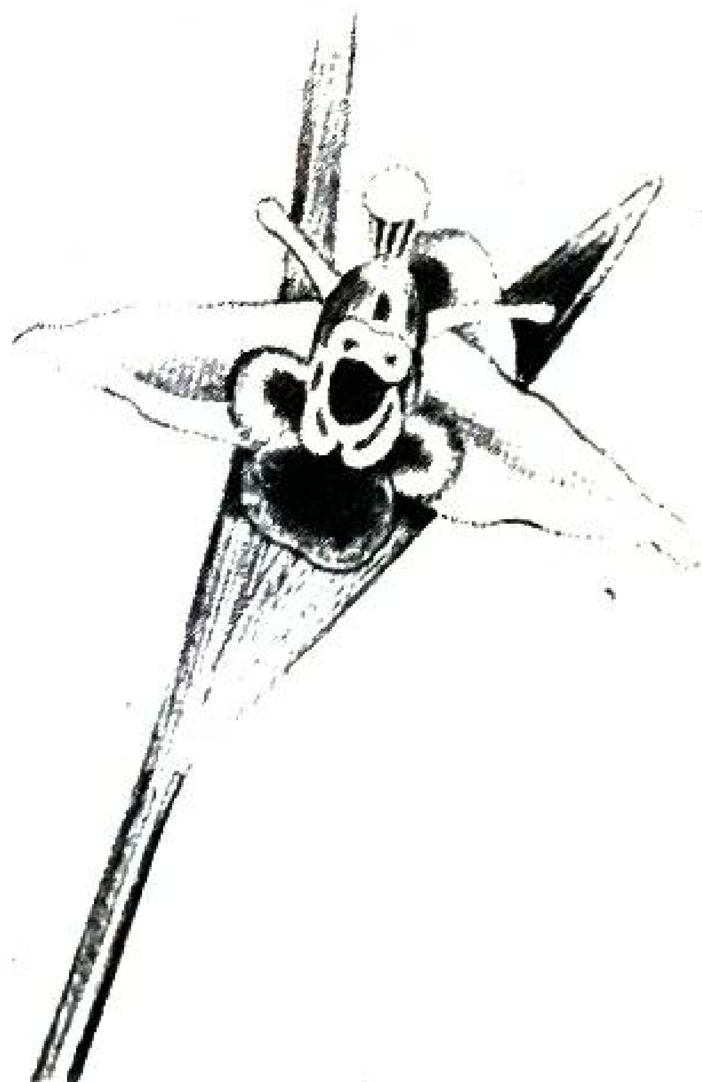
بعـد الظهر، كان مخصصاً للصيد بالطيارة، كما في جزر ارخبيـل سليمـان: ربـطُ حبل الطيارة الى مؤخرة



القارب فيما خيطً، بالطول نفسه، يتمدد من طرف الشبكة منتهياً بشص مخبا في كتلة ريش. كان روبنسن يجذف عكس الريـح، تتبعـه كتلة الريش متمـوجة على سطح المياه. أحياناً تنجذب سمكة كبيرة الى تلك الكتلة المغرية فتقضمها ويصطادها الشص. ويعرف جمعة وروبنسن بالأمـر، من الطيـارة إذ يجدانها اهتزت كفلينة قصبة صيد تعلق بها سمكة. عندها، يستدير روبنسن ويغود مجذفاً باتجاه الريح ليبلغ طرف الخيط الذي يكون جمعة ممسكـاً به. وفي قعر المركب، تتراكم السمكات وأكثرها بيلونيـات (محـارات مسـطحـة ومدورة شهية الطعم، مصدرها من شواطئ مدينة «بيلون» الفرنسية)، تتكدس لماعة مستديرة خضراء الظهور فضية الجنبات.

عند المساء، لم يشأ جمعة إعادة آندوار الى الارض يمضي الليـل، فربطهباحدى شجرات الفلفل التي علق عليها أرجوحته. وهكذا، كأي حيوان تدجن مع الوقت، أمضى آندوار ليلته على قدمي سيده. ثم عاد فرافقه طوال النهـار التـالي. ولكن، خلال الليلة التـالية، كان الهواء معدوماً، فاستوجب ذلك بحثاً عن الطائر الكبير وسط حقل

زهور حط فيه بهدوء وبعد عدة محاولات بدون جدوى، أشاح جمعة عن إطلاقه في الريح. وأكثر: نسيه ثمانية أيام كان خلالها نائماً كل الوقت. وحين صحا، تذكر رأس الفحل الذي كان تركه وسط جماعة النمل.







٣٣

كانت جماعة النمل عملت دؤوبة، فلم يعد في الرأس أثـر لأي شعر طويل أبيض وبني، ولا للحية ولا للحم. حتى داخل الجوف بات نظيفاً تماماً. وحين عاد جمعة الى روبنسن يومئـذ، كان في يده جمجمة بيضاء جافة لها قرنان جميلان سوداوان حلقيان بشكل قيثار. وإذ صدف أن وجد جمعة الطوق الذي كان وضعه حول عنق آندوار، عقـده على طرفي القـرنـين كمـا ينعقـد شعـر البنيات الصغيرات. والتفت الى روبنسن واعداً:

ـ آندورا طار. وهاهو الآن سيغني.

استغرب روبنسن لكنه لم يجب، وأخذ يراقب جمعة: قصب أولاً عارضتين متفاوتتي الطول من خشب الجميز. بالأطول، ومن ثقبين فتحهما من كل جانب على طرفيها،

جمع طرفي القرنين. أما العارضة الأقصر، فركزها موازية للكبرى في وسط المسافة عن قصبة الأنف. أعلى قليلاً، بين محجري العينين، ركز لويحة صنوبر، في ضلعها الأعلى اثنا عشر ثلماً ضيقاً. وأخيراً، جاء بأمعاء الفحل ـ وكانت لاتزال تترجح على إحدى الأشجار ـ وقد باتت قدة رقيقة وجافة سمرتها الشمس، فقطعها الى حبال متساوية من متر واحد طولاً.

وحين شد بين العارضتين، بواسطة أوتاد، الاثني عشر معياً على جبين الجمجمة، فهم روبنسن أن جمعة يصنع قيثاراً هوائياً، وهو عادة ـ آلة توضع في الهواء او في مجرى هواء، فيحرك النسيم أوتارها محدثاً أنغاماً. من هنا ضرورة أن تتحرك جميع الاوتار بدون تنافر، وأن تكون مدوزنة (مضبوطة) بالتساوق أو على الوحدة الموسيقية.

من كل جهة في الجمجمة، ركز جمعة جناح نسر لتحويل الهواء الى الاوتار. ثم وضع القيثار الهوائي بين أغصان سروة يابسة تنتصب بجذعها النحيل بين الصخور، في مكان معرض للهواء، من الجهات الاربع.

وما إن وضعها، حتى راحت تنبعث منها الأنغام، مع أن الهواء كان شبه ساكن. وأخذ جمعة يصغي طويلاً الى تلك الانغام الناعمة، والحزينة حتى إثارة الدمع. ثم قام بحركة اشمئزاز وأدار صوب روبنسن إصبعين ليفهمه أن الهواء لايحرك سوى وترين فقط من الاثني عشر.

ولزم انتظار شهر كامل للعاصفة اللاحقة حتى انطلق آندوار بالغناء على أوتاره الكاملة.

وكان روبنسن وفق أخيراً في صنع بيت له بين أغصان شجرة آروكاريا، سقفه بألواح من القلف (قشر الشجر). وذات ليلة، جاء جمعة وشده من رجليه: كانت هبت عاصفة قوية جداً، وفي السماء الدكناء بدا القمر يتزحلق سريعاً كأسطوانة بين الغيوم الممزقة. جر جمعة صديقه صوب السروة. وقبل وصولهما إليها، سمع روبنسن مثل كونشرتو سماوي تمتزج فيه أصوات نايات وكمانات. وكان الهواء يقوى كلما اقترب الصديقان من الشجرة المغنية. ذلك أن الطيارة، [illegible]علقة بحبل قصير الى الغصن الاعلى، كانت تترجح [illegible]ل، مرة ثابتة مرتجفة، وأخرى ملوحة بعنف. وتحت ا[illegible]مر المتلألئة، كان

جناحا النسر ينفتحان وينغلقان وفق اتجاه الريح. هكذا بدا آندوار الطائر وندوار المغني مجتمعين في عيد واحد، وفي موسيقى ضخمة جميلة وصارخة، كأنها نواح آندوار الذي مات ليخلص جمعة.

وانحنى الثلاثة تحت صخرة: روبنسن، جمعة، وآندا، لمشاهدة هذا المشهد الرهيب، وللاصغاء الى هذا النشيد الذي كأنه من قمم النجوم ويطلع من أعماق الارض.



٣٤

كان جمعة يجمع الزهر بين صخور الركام، حين رأى فجأةً نقطةً بيضاء في الأفق من جهة الشرق. هرع نزولاً ينبئ روبنسن الذي كان ينهي حلاقـة ذقنه. قد يكون اهتز للخبر، لكنه لم يظهر ذلك بل أجاب بكل بساطة:

- يعني: سنستقبل زواراً. سبب إضافي لاتمام هندامي.

وفي قمة هيجانه من الفرح، تسلق جمعة قمة شجرة، حامـلاً معـه المنـظار. ركزه على عينيه، فتبين بوضوحٍ سفينـةً مقبلة. كانت صيادة (سفينة سريعة بصاريين وأشرعـة مربعـة، تستعمل خاصة للصيد) ذات شراع عالٍ، مخصصة لسباق السفن الشراعية، ولها صاريان عاليـان (أحـداهما - صاري الميزان - في رأسه شراع مربـع، والآخر شراع مثلث) تسير بسرعة ست عقد الى

اثنتي عشرة عقدة، وتتوجه مباشرة الى شاطئ الجزيرة.

هرع جمعــة مجدداً يعـطي هذه التفـاصيـل الى روبنسن الذي يمشط شعره. ثم عاد الى نقطة مراقبته. ويبدو أن القبطان تنبه الى صعوبة الرسو من تلك الجهة، فحول وجهة سيره ثم أنزل الاشرعة واقترب من جهة أخرى.

عاد جمعــة الى روبنسن ينذره بأن السفينة تتعدى الكثبـان، وقـد تنـزل الياطر (المرساة) على الارجح في «خليج الخلاص».

كان المهم أولاً معرفة هوية السفينة. تقدم روبنسن حتى آخر ستار من الاشجار عند الشاطئ، وركز منظاره الطويـل على السفينـة، فالفاها تتوقف على قلسين من الشاطئ الرملي (القلس: قياس للطول يعادل ٢٠٠ متر). بعد لحظات، سمع صوت سلسلة الياطر الكبرى تنحدر الى قعر المياه.

لم يكن روبنسن يعرف هذا النوع من السفن الذي قد يكون حديثاً، لكنه تعرف الى العلم الانكليزي يرفرف عليهـا. ثم أنزل الطاقم زورق إنقاذ الى المياه، وبدأت

المجاذيف بالحركة.

كان روبنسن شديد التأثر. لم يكن يعرف كم من الزمن مر عليه في هذه الجزيرة لكنه يشعر بأنه أمضى فيها الردح الاكبر من حياته. وفي الروايات أن المحتضر يستعرض شريط حياته في ثوان. هكذا روبنسن راح، في ثوانٍ، يستعرض الغرق والانقاذ وبناء «الفرار» وفشله وبؤس الممرغ الموحل واستثمار الجزيرة المسعور ووصول جمعة والأشغال التي فرضها عليه ثم الانفجار وتدمير كل أعماله فالحياة الطويلة والهانئة الممتلئة ألعاباً عنيفة وسليمة ثم اختراعات جمعة العجيبة... فهل تكون لكل ذلك نهاية؟؟؟

في زورق الانقاذ، كانت مكدسةً براميل صغيرة لتجديد مؤونة المياه العذبة على السفينة. في المؤخرة، رجل مدجج يعتمر قبعة من قش منحنية صوب لحيته السوداء. انه القبطان بلا شك.

وماهي، حتى ضربت الزورق بالرمل وارتفعت مجمدةً الزورق فقفز منه الرجال في زبد الموج وسحبوه الى الرمل كي لايسحبه المد.

تقدم الرجل الملتحي من روبنسن، ماداً يده إليه مصافحاً ومعرفاً:

- وليم هانتر من بلاكبول، قبطان سفينة «الطائر الابيض».

فسأله روبنسن:

- في أي يوم نحن؟

استغرب القبطان، والتفت الى رجل كان يتبعه، وقد يكون معاونه، وسأله:

- في آي يوم نحن؟

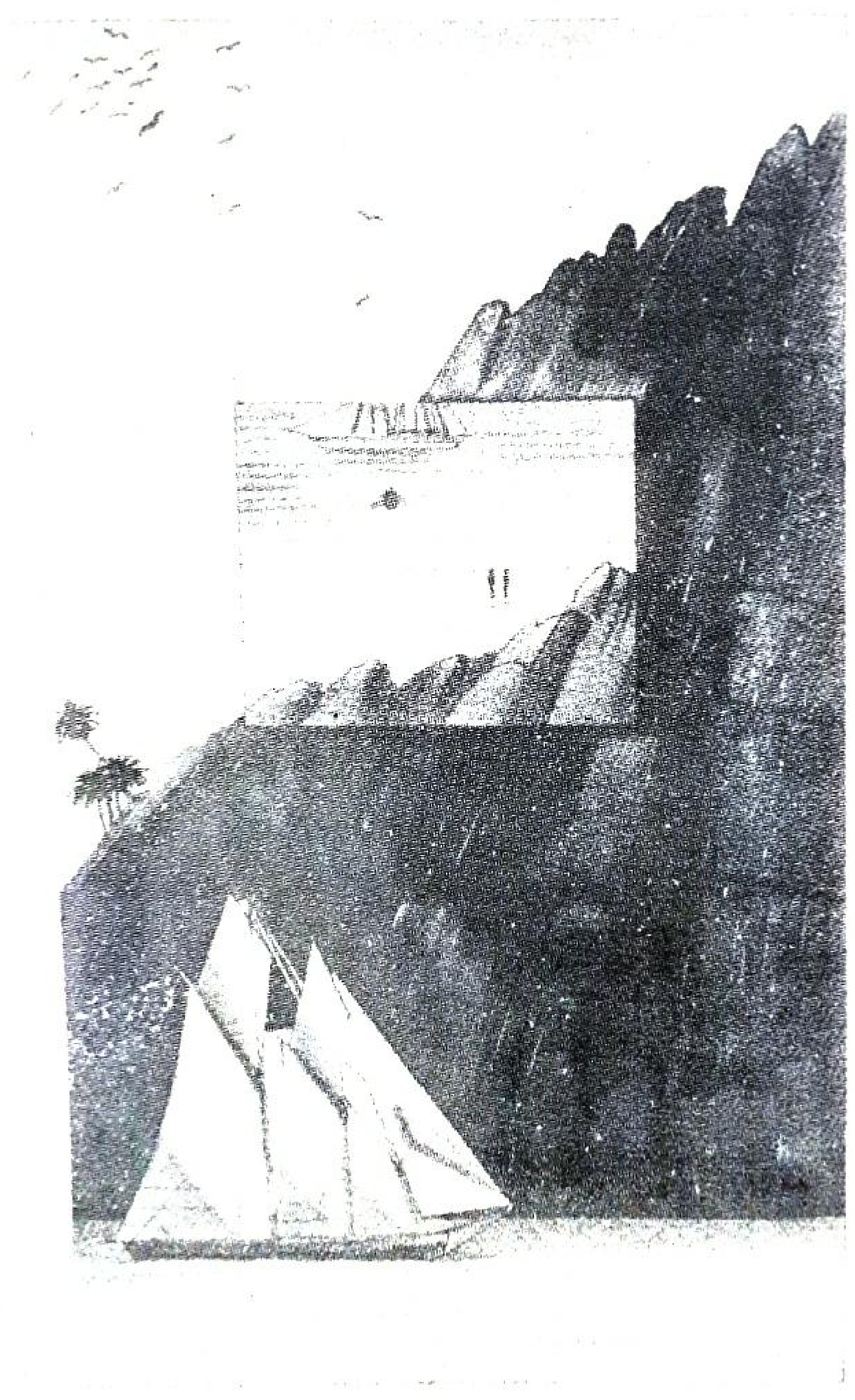
أجاب الرجل:

-نحن، سيدي في يوم السبت ٢٢ كانون الأول ١٧٨٧.

فاستدار القبطان وأبلغ روبنسن:

-نحن في يوم السبت ٢٢ كانون الاول ١٧٨٧.

ودار دماغ روبنسن بسرعة هائلة: كان غرق «فرجينيا» يوم ٣٠ أيلول ١٧٥٩. إذاً: منذ ٢٢ عاماً وشهرين و٢٢ يوماً.وذهل من أن يكون مر عليه كل هذا الوقت في الجزيرة. ورغم جميع الحوادث التي جرت له فيها منذ وصوله، أذهله أن يكون مر عليه أكثر من ٢٨



سنة بين غرق «فرجينيا» ووصول «الطائر الابيض».

وفي حساب له آخر: هو في ١٧٨٧ ـ على حد قول الواصلين ـ يعني أنه بلغ الخمسين، عمر الكهولة، فيما كان ـ بفضل الحياة الحرة والسعيدة في سبيرانزا، وخاصة بفضل جمعة ـ يشعر بأنه يزداد فتوة وشباباً. وعلى أي حال، قرر إخفاء تاريخ وصوله عن الوافدين، خوف أن يظنوه كاذباً. فشرح لهم:

ـ قذفني البحر على هذا الشاطئ، وكنت مسافراً على متن الغليونة «فرجينيا» (مركب شراعي صغير كان الهولنديون يستعملونه للصيد. والغيلونة أيضاً سفينة شراعية صغيرة قديمة، أصغر قليلاً من الغليون الذي هو سفينة شراعية تجارية، وأحياناً حربية، كانت تستعمل قديماً لنقل الذهب الى إسبانيا من كافة المستعمرات الاسبانية). وهي كانت بقيادة القبطان بيتر فان ديسل من فليسينغ. كنت الناجي الوحيد من الكارثة. وقد أفقدتني الصدمة بعض ذاكرتي، وخاصة لم أعد أذكر متى تم ذلك.

فعلق هانتر:

ـ لم أسمع قط بهذه السفينة ولا في أي مرفأ. على كل، لقد غيرت الحرب مع الاميركتين جميع العلاقات البحرية.

طبعاً لم يكن روبنسن على علم بأن المستعمرات الانكليزية في امريكيا الشمالية حاربت انكلترا لنيل استقلالها، ونتجت عن ذلك حرب دامت من ١٧٧٥ الى ١٧٨٢. لكنه تجنب طرح أسئلة تفضح جهله.

في هذه الاثناء، كان جمعة يساعد رجال الطاقم على إفراغ البراميل وارشادهم الى أقرب عين ماء. وفهم روبنسن بأن جمعة متحمس في مساعدة البحارة، آملاً في أن يصطحبوه معهم. وحتى هو كان يتحرق رغبة في زيارة تلك السفينة المتينة التي تبدو من أحدث منتجات السفن الشراعية. وكان جميع من حوله ـ هانتر، معاونه، وجميع البحارة ـ بشعين فظين جلفين قاسين حتى تسأل اذا كان يمكنه، بعد أن يعيش مع أمثاله من الرجال.

وكان تعهد أن يرشد هانتر الى موارد الطرائد والاطعمة الطازجة في الجزيرة، مثل الحرفة (بقلة مائية تنبت في الجداول والمنافع، يؤكل ورقها)، والبقلة العادية (نوع نباتات عشبية لحمية)، وهي التي بفضلها لاخوف

على البحارة من التقاط داء الحفر (مرض يفسد الدم). وكان البحارة يتسلقون جذوع الاشجار ويقطعون بسكاكينهم النخل الكرنبي (جنس شجر من الفصيلة النخلية يقطعون رأسه اللين ويأكلونه نيئاً أو مخللاً)، أو يطارد آخرون منهم الجداء بحبالهم ضاحكين. وعز على روبنسن أن يرى هؤلاء الوافدين الغليظين المخمورين يبترون الاشجار ويقتلون مواشي جزيرته، لكنه لم يشأ أن يكون انانياً مع أوائل الرجال الذين يراهم بعد سنوات طويلة.

وكان روبنسن مقيماً مصرف سبيرانزا وينقد منه جمعة، كان علا العشب البري ويلوح في الريح بهمس حريري. انحنى أحد البحارة والتقط قطعتي نقد ذهبيتين فهيج رفاقه على ذلك، وعلت الضوضاء حتى انتهى بهم القرار الى إحراق الحقل كله تسهيلاً لايجاد قطع نقدية أخرى. ولم يتمالك روبنسن من التفكير بأن هذا الذهب كان له، وبأن الماشية، بهذا الحريق، ستحرم من أفضل مرعى في الجزيرة كلها. وكانت كل قطعة ذهبية توجد، مثار مشاحنات غالباً ماتنتهي بشجارات دموية.

حاول روبنسن الاشاحة عن هذا المشهد بتحريضه معاون القبطان على الكلام. فأخذ هذا يصف له بحماس تجـارة العبيـد التي كانت تشكـل أساس اليد العاملة لزراعة القطن في الولايات الجنوبية من أميركا. فقد كان العبيـد السود يؤخذون من أفريقيا على بواخر خاصة يتكدسون فيها كالبضاعة، ويباعون في الولايات المتحدة، فتعـود البـواخـر محملة بالقطن والسكر والبن والنيلة (شجـر خاص يكثـر في المناطق الحارة، وتستخرج من ورقة مادة النيلة). وكانت تلك رحلة مثمرة مثالية للباخرة التي سرعان ماتبيع بضاعتها في المرافئ الاوربية.

ثم تناول هانتر الكلام، وروى وهو يضحك كيف خلال الحرب أغرق سفينة جند فرنسية كانت متوجهة لمساندة الثوار الاميركيين، وكيف غرق جميع جنودها على مرأى منه. فاشمأز روبنسن واقشعر بدنه للرواية، كأنه رفع حجراً ووجد تحته دويبات قشرية صغيرة سوداء تعج بالحركة.

قام زورق الانقاذ برحلته الاولى الى «الطائر الابيض» لتفـريـغ حمولته من الفواكه والخضر والطرائد وبينها

جداء موثوقة. وانتظر البحارة أمر قبطانهم للقيام برحلة ثانية، فقال هذا لروبنسن:

ـ يشرفني أن تتناول معي اليوم الغداء.

ولم ينتظر جواباً، بل أمر رجاله بنقل حمولة الماء العذب الى السفينة، ثم العودة لاصطحابه وضيفه الى متن السفينة.

وحين قفز روبنسن الى متن «الطائر الابيض»، فوجئ بجمعة يستقبله بوجه متألق، وكان بلغ السفينة في أول رحلة لزورق الانقاذ، ذلك أن أفراد الطاقم اصطحبوه، وبدا يعرف السفينة كما لو انه ولد عليها. ورآه روبنسن يندفع في أكبال الأعمدة ويتسلق المصطبة ويمشي على مدرجات عارضة الصواري ويترجح فوق الموج بضحكة سعادةٍ غامرة. وتذكر أن جمعة يحب كل ما له علاقة بالفراغ والهواء (الأسهم، الطيارة، القيثار الهوائي) وفهم بأن السفينة الشراعية الرشيقة الخفيفة البيضاء، هي أفضل ظاهرة هوائية شاهدها في حياته. وشعر روبنسن بالحزن لملاحظته بأن جمعة بدا أكثر منه فرحاً لوصول «الطائر الابيض».

تقـدم خطواتٍ على السطح، فانتبه الى شكل إنسان صغير مربوطٍ نصف عار الى قدم الصاري. كان ذلك ولداً في نحـو الثانية عشرة، هزيلاً كعصفور منتوف الريش، وظهره كله مخطط بعلامات دموية. لم يكن وجهه ظاهراً، لكن شعره الاصهب ينسدل على كتفيه بكثافة تتهدل على ظهره. خفف روبنسن وطأه عند رؤيته، فشرح له القبطان:

- إنه جان، نوتي السفينة.

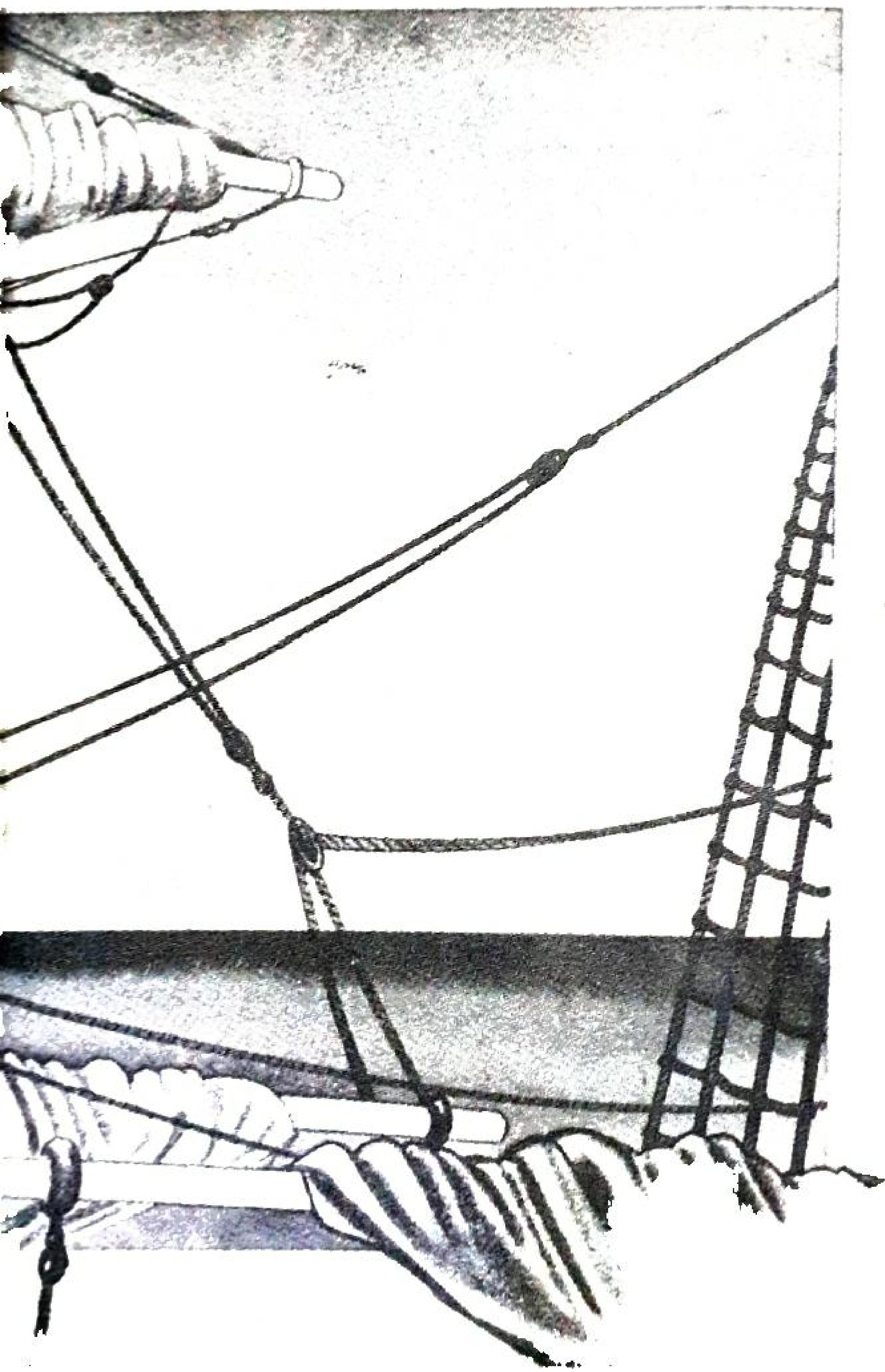
ثم التفت صوب معاونه:

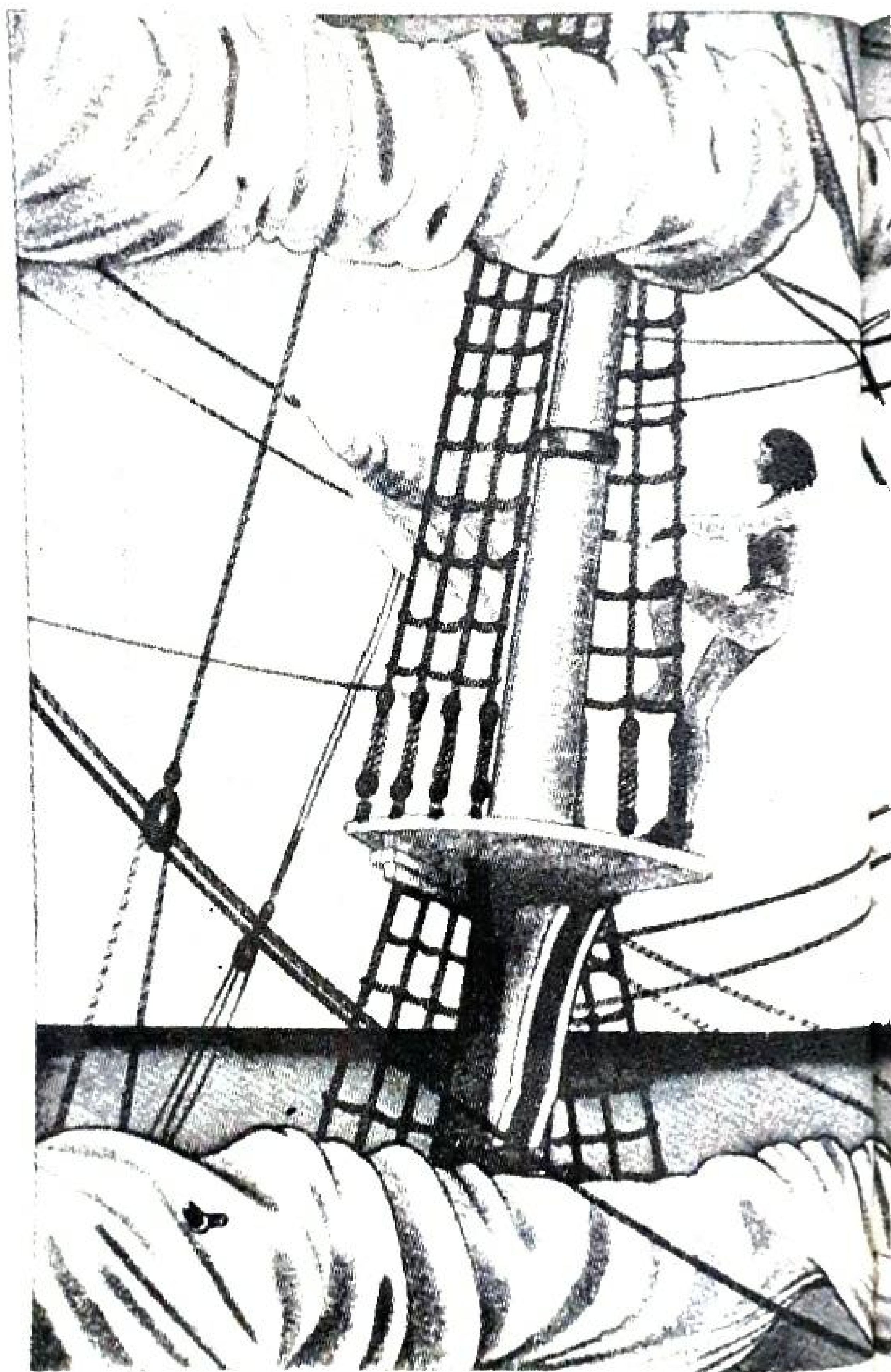
- وماذا فعل من جديد؟

فاذا بوجـه محمـر يعتمر قبعة طاهٍ، يطل من كوة بيت المؤونة كشيطان يخرج من علبة.

ويقول:

- لافائدة منه ترجى. هذا الصباح أفسد لي فطيرة دجاج محشوة، إذ ملحها ثلاث مرات من شدة طيشه وسهوه. فنـال عقـاباً على ذلك اثنتي عشرة جلدة سوط بجديلة الحبل. وسينال غيرها، بعد، إذا لم يتعلم أن يكون أكثر انتباهاً.





وغاب رأس الرجل بأسرع مما ظهر. فأمر القبطان معاونه:

ـ فك وثاقه، وليخدمنا في المطعم .

تناول روبنسن الغداء مع القبطان ومعاونه. وتصور أن جمعة يتناول الطعام مع أفراد الطاقم. وصعب عليه إكمال البرنيات (نوع من اللحم السميك) واللحم بالمرق، وجميعها متبلة، ملئ بها صحنة غير مرة. لم تعد له عادة هذه المأكولات الدسمة الصعبة الهضم، بعدما اعتاد أكل الاطعمة الخفيفة الطرية الطبيعية منذ زمن.

كان النوتي جان يخدم على المائدة، يغطي نصف قامته مريول أبيض طويل. وكان روبنسن يبحث عن عينيه تحت شعره الأشعث. لكن هذا لم ينتبه الى روبنسن لحرصه على عدم اقتراف غلطة تكلفه جلدات جديدة .وكان القبطان متجهماً وصامتاً، فيما معاونه يتولى الحديث شارحاً لروبنسن آخر إحرازات تقنية الاشرعة وعلم الملاحة..

بعد الغداء، انسحب هانتر الى حجرته، وتوجه المعاون بروبنسن الى غرفة القيادة، ليريه اداة ادخلت الى الملاحة

حديثاً: «السدسية» وهي آلة في سفينة أو طائرة، لقياس رتفاع الاجرام، شارحاً لروبنسن انه بها يقيس ارتفاع الشمس فوق الافق. وفيما كان روبنسن يصغي لشرح المعاون بحماس، راح يتفحص تلك الآلة النحاسية والعاجية الجميلة وقد أخرجها المعاون من صندوقها.

ثم ذهب روبنسن الى السطح يتمدد في قيلولته المعتادة. وكان رأس صاري المصطبة فوقه، يرسم دوائر غير منتظمة في سماء زرقاء صافية يبدو فيها أثرُ هلال شفافي (نصف شفاف).

أدار رأسه فرأى سبيرانزا، رقعةً من الرمل الاشقر، واحةً من الخضرة، وكتلةً من الركام الصخري. عندها، أيقن أنه لن يغادر الجزيرة مطلقاً، وأن (الطائر الابيض) ورجالها من حضارة لايريد العودة اليها احس بانه شاب وسيم وقـوي شرط بقائه في سبيرانزا مع جمعة . وكان هانتر ومعاونه أنبآه، بدون أن يدريا، أنه بلغ الخمسين. ولو ذهب معهما، سيكون عجوزاً رمادي الشعر، وقور القامة، وسيمسي مثلهما شريراً.

كلا: سيبقى وفياً لحياته الجديدة التي علمه إياها

جمعة.

ولما أعلن عن قراره البقاء في الجزيرة، وحده المعاون فوجئ، بينما هانتر أبدى ابتسامة باردة لأنه ارتاح ألا يكـون معه راكبان إضافيان على سفينة ضيقة توزعت مقاعدها على عدد أفراد طاقمها تماماً. وهنا قال القبطان:

ـ اعتبر أن ماشحناه من مؤونة وذهب، هو من كرمك. وتخليداً لذكرى مرورنا في سبيرانزا، إسمح لي أن أقدم لك هذا القارب النجاة الصغير، لاحاجة لنا به في وجود قاربين كبيرين معنا.

كان ذاك، قارباً خفيفاً ومتيناً، نموذجياً لرجل او اثنين في بحر هادئ. ويمكن أن يحل مكان قارب جمعة القديم.

وعلى متن ذاك القارب الصغير المهدى، عاد روبنسن وجمعة الى الجزيرة.

لدى نزول روبنسن الى البر، شعر بارتياح كبير. فهو لم يحصد من سفينة «الطائر الابيض» وأفراد طاقمها الا الفـوضى والعبث بالجـزيـرة السعيدة التي عاش فيها وجمعة حياة مثالية. ولكن ما هم. غداً، مع اشعة الفجر الاولى، ستـرفع السفينة الانكليزية مرساتها وتعود الى

مكانها في هذا العالم المتحضر. وكان روبنسن تمنى على القبطان ألا يكشف عن وجود الجزيرة ولا عن موقعها على الخارطة. ووعده القبطان بذلك، وشعر روبنسن بأن القبطان صادق في وعده.

هكذا، سيبقى أمام روبنسن وجمعة، من جديد، سنوات طويلة من الوحدة والهدوء



٣٥

كان الشفق شاحباً، ساعة نزل روبنسن عن شجرة الآروكـاريـا حيث أمضى ليلته. كان يكره تلك الأويقات المتقعة الحزينة التي تسبق شروق الشمس. لذلك اعتاد انتـظار أشعتهـا الأولى لينهض، فيمـا يبقى جمعـة مستغرقاً في النوم.

ليلتئذٍ لم ينم روبنسن جيداً، لسوء هضمٍ أصابه من غداء الأمس على متن «الطائر الابيض»، بلحومه ومرقه وخمره، مما سبب له نوماً ثقيلاً تقطع باستفاقات مفاجئة وكوابيس.

تقدم خطوات على الشاطئ، وكما توقع: كانت سفينة «الطائر الابيض» أقلعت. كانت المياه والسماء بلا لون، وعلى شفاه النبات ندى كثير، والعصافير في صمت مهيب.

أحس روبنسن بحـزن كبير يجتاحه بعد دقائق. وتلزم ساعة، او اكثر حتى تشرق الشمس وتعيد الى الجزيرة الحياة والفرح. بانتظار ذلك، قرر روبنسن التوجه الى حيث ينـام جمعـة في أرجوحته لا ليوقظه بل ليستأنس بوجوده معه.

سوى أن الأرجوحة كانت... فارغة. والأغرب: اختفاء جميـع أغراض جمعة التي كان يتسلى بها في قيلولته: المرايا، المزامير، الأنابيب، السهام، الريش، الكرات،... وحتى العنزة آندا اختفت كذلك.

اجتاح روبنسن خوف عظيم: وماذا لو يكون جمعة ذهب على متن «الطائر الابيض»؟

هرع صوب الشـاطئ: مازال القـاربـان (القـديم والجديد) مسحوبين الى الرمل الجاف. ولو أراد جمعة اللحاق بالسفينة الانكليزية، لكان استخدم واحداً منهما وتركه في البحر. فهل يكون قام باللحاق الليلي سباحة؟؟

راح روبنسن يدور في الجزيرة كلها وهو ينادي جمعة. ركض من شاطئ الى آخر، ومن جرف الى كثيب، ومن غابة الى مستنقـع، ومن كتلة صخـرية الى حقل، وهو يزداد

يأسا من إيجاده، صارخاً منادياً مترنحاً من التعب، ويزداد اقتناعاً بأن جمعة خانه وتركه. ولكن، لماذا؟ لماذا؟

وتذكر كيف كان جمعه معجباً بالسفينة الكبيرة البيضاء وكيف راح يتأرجح سعيداً عليها وهو يضحك ويقفز من عارضة الى اخرى عالياً فوق المياه. هكذا إذاً: أعجب جمعه بهذه اللعبة الجديدة التي وجدها أفضل من كل ما اخترعه على الجزيرة من ألعاب.

مسكين جمعة!

وتذكر روبنسن كذلك ماروى له معاون القبطان من تفاصيل رهيبة عن معاملة العبيد القاسية بين أفريقيا ومزارع القطن في أميركا. ولابد أن يكون الهندي الساذج الآن في قعر غرف «الطائر الابيض» مكبلاً بسلاسل العبيد.

غمر الحزن قلب روبنسن. ومع هذا، أكمل بحثه، لكنه لم يلتق الا الذكريات تطالعه فتزيد قلبه حزناً على حزن: القيثار الهوائي، الطيارة وقد هشمها رجال السفينة الانكليزية... وفجأةً، أحس بجسم صلد تحت رجليه. تطلع، فاذا به أمام طوق «تن» وقد تآكله العفن.

عنـدهـا أسنـد روبنسن جبينـه على جذع شجـرة يوكاليبتوس، وبكى كل ما ماقيه من دموع.

وعندما رفع رأسه، لقي على بعد أمتارٍ ستة نسور ترمقه بعيون نهمة حمراء. كأنها أحست بأن روبنسن سيموت. لكنه رفض أن يترك جسمه نهشاً للطيور الكاسرة. وتذكر عمق المغارة حيث أمضى أجمل ساعاته. صحيح أن الانفجار سد حتماً مدخل المغارة، لكنه من الضعف والانهيار بحيث تأكد من أنه حتماً سيجد منفذاً إليها ولو بين صخرتين، فينزل الى العمق الناعم والدافئ ويتكوم برأسه على ركبته وقدميه المتصالبتين، وينسى كل شئ وينـام هنـاك الى الابد، بمنأى على النسور وسائر الحيوانات المفترسة.

هكـذا، تقدم بخطى صغيرة نحو الجرف الصخري القائم مكان المغارة. وبعد تنقيب طويل، وجد فتحة كباب هرة. ومن شدة غمـه، خيـل إليـه أنـه يستطيع حتماً دخولها. مد فيها رأسه ليتأكد من أن فيها ممراً يؤدي الى عمق المغارة، فسمع في الداخل حركة. انه حجر تدحرج. تراجـع روبنسن فوراً، وإذا بجسم يعترض الفتحـة

ويخرج منها بعد التواءات. وماهي حتى انتصب أمام روبنسن ولد يحتمي بكف يده اليمنى من النور القوي أو ... من صفعة تأديبية قاسية.

ذهل روبنسن، وسأله؟

-من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

- أنا نوتي «الطائر الابيض». هربت من تلك السفينة التي جعلتني بائساً تعساً. فيما كنت أمس أخدم على مائدة القبطان، أحسست في نظرتك إلي حناناً دافئاً. ثم فهمت من كلامك أنك باقٍ في الجزيرة ولن ترحل، فقررتُ الاختباء في الجزيرة والبقاء معك.

فسأله روبنسن ملهوفاً:

- وجمعة؟ هل رأيت؟

- نعم رأيته. حين تسللت في الليل عن السطح وأردت النزول الى المياه لأسبح حتى أبلغ الشاطئ، رأيت رجلاً يدنو في قارب. كان ذاك خادمك الخلاسي. صعد الى سطح السفينة، ومعه عنزة صغيرة بيضاء. ودخل فوراً الى غرفة المعاون الذي يبدو أنه كان عارفاً بمجيئه، وينتظره، ففهمت أنه باق على متن السفينة. عندها، قفزت الى المياه

واستقللت القارب وجذفت به حتى الشاطئ.

فهتف روبنسن:

- إذاً، لهذا وجدت القاربين معاً على الرمل.

- وجئت فاختبأت هنا بين الصخور. والآن، سافرت السفينة بدوني، وسأبقى وأعيش معك.

- تعال معي.

وأخذ روبنسن النوتي من يده، فتسلق صوب قمة الصخور. وفي الطريق، توقف وتطلع الى صديقه الجديد، فأشرقت ابتسامة شاحبة على الوجه النحيل المنقط ببقع صهباء. وفتح يده، متأملا تلك اليد الصغيرة، هزيلةً ضعيفة، انما معضلة بالأشغال الفظة على متن السفينة.

ومن أعلى الجرف الصخري، تطلعا الى الجزيرة التي بانت كلها غارقة في الضباب. وعلى الشاطئ، كان القاربان بدأ يتحركان على المياه التي بلغتهما من المد. وفي البعيد، صوب الشمال، كانت لاتزال مرئية نقطة بيضاء تتوغل في الافق. انها سفينة «الطائر الابيض».

مد روبنسن صوبها يده قائلاً:

- أنظر اليها جيداً. فقد لاتعود ترى أبداً سفينة بالقرب



من شواطئ سبيرانزا.

وأخذت النقطة البيضاء تصغر تدريجاً حتى اختفت.

في تلك اللحظات، بدأت أشعة الشمس الاولى تنهمل على الجزيرة. في الجوار، غنى صرار، ومر نورس فهبط في المياه ثم يخبط بجناحيه وفي منقاره سمكة. وزهرات الجوار أخذت واحدة بعد واحدة تفتح أكمامها للصباح.

أحس روبنسن بالحياة والسعادة تملآنه: ها هو جمعة، علمه الحياة البرية، وراح. لكن روبنسن لم يبق وحيداً. ها معه الآن هذا الأخ الاصغر الأصهب الشعر كشعره، وهو بدأ يلتمع تحت أشعة الشمس.

وسيكون لهما أن يخترعا ألعاباً جديدة ومغامرات جديدة وانتصارات جديدة. ومعهما، ستبدأ حياة جديدة، جميلة كهذه الجزيرة التي تصحو تحت أقدامهما من بين الضباب.

تطلع روبنسن الى النوتي سائلاً:

ـ ماسمك؟

أجاب الولد كما معتذراً من صعوبة اسمه:

ـ جان نيلجابيف، من أستونيا.

ـمنذ اليوم ستدعى «ابن الأحد». انه اليوم: الأحد. يوم العيـد الجـديـد والحيـاة الجديدة. سأسميك باسمه، وستبقى دائماً بالنسبة الي: ابن الأحد.



شركة المنصور للطباعة المحــدودة - تلفــون ٤١٦٣١٥٣

على أثـر غرق السفينـة «فـرجينيا»، نجا روبنسن كروزو وحيداً في جزيرة.

وبعـد فتـرة من اليأس والاحباط، تمكن من إعادة ترتيب الجزيرة، بمساعدة جمعة الهندي الذي جعله في خدمته.

ولكن، على أثر حادثة وقعت، انهارت الحضارة الهشة التي شيدها روبنسن، وبدأت مع الرجلين حياة جديدة.

هذه الرواية، يجد فيها الأولاد والفتيان قصة مغامرات ملأى بالتفـاصيل والأحداث المسلية والمفيدة عن حياة ناجيين من الغرق.

أمـا الأكبـر سنـاً، فيجدون فيها قصة فلسفية سهلة التنـاول، غنيـة بالتفاصيل التي توقظ في البال مشاعر السلطة والحرية والسعادة.

دار ثقافة الاطفال

قسم النشر

سلسلة الخيال

السعر ٦٥٠ فلساً

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٧٩٦ لسنة ١٩٨٩

شركة المنصور للطباعة المحدودة - تلفـون ٤١٦٣١٥٢